

T
118 A

عماد الدين زكي

٤٧٧ - ٥٤١ هـ

١٠٨٣ - ١١٤٧ م

عبد الحميد العاني

الدائرة العربية 1968

نسخة فاهية غير كاملة

هيكل البحث

- (١) المقدمة
- (٢) المصادر
- (٣) عصره
- (٤) نسبه
- (٥) ولادته
- (٦) ولايته واسط وشحنكية البصرة . الحرب بين الخليفة ودييس ٥١٦ هـ = ١١٢٢ م
- (٧) اقطاعه البصرة ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م
- (٨) ولايته شحنكية بغداد ٥١٩ هـ = ١١٢٥ م
- (٩) ولايته الموصل وسائر بلاد الجزيرة ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م
- (١٠) ملكه حلب ٥٢٢ هـ = ١١٢٦ م
- (١١) فتحه لمدينتي حماة وحمص ٥٢٣ هـ = ١١٢٩ م
- (١٢) الحرب بين زنكي والارتقية . فتحه حصن الأثارب، ودارا، واخذ عماد الدين جانب السلطان مسعود في حربه مع اخيه سلجوق شاه، ٥٢٤ هـ = ١١٣٠ م
- (١٣) الحرب بين المسترشد بالله وزنكي
- (١٤) ملكه لقلع الاكراد الحميدية ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م
- (١٥) زنكي يحاصر آمد، ويملك قلعة الصور . ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م
- (١٦) زنكي والخلاف بين المسترشد ومسعود ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م
- (١٧) زنكي يحاصر دمشق لأول مرة . ٥٢٩ هـ = ١١٣٥ م
- (١٨) الحرب بين الخليفة والسلطان، والتجاء الخليفة الى الموصل ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م
- (١٩) العسكر الأتايكي وبلاد الفرنج ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م
- (٢٠) حصار زنكي مدينة حمص ٥٣١ هـ = ١١٣٦ م
- (٢١) ملك زنكي حمص ٥٣٢ هـ = ١١٣٨ م
- (٢٢) ملك زنكي قلعة بعين ٥٣١ هـ = ١١٣٧ م
- (٢٣) زنكي وملك الروم ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ - ١١٣٨ م
- (٢٤) ملك زنكي بعلبك ٥٣٣ هـ = ١١٣٩ م

- (٢٥) زنكي يحاصر دمشق ، للمرة الثانية ، ٥٣٤ هـ = ١١٤٠ م
(٢٦) زنكي يملك قلعة شهرزور ٥٣٤ هـ = ١١٤٠ م
(٢٧) زنكي وسقمان سنة ٥٣٥ هـ = ١١٤١ م
(٢٨) زنكي والاكراذ الحكارية ٥٣٧ هـ = ١١٤٢ - ١١٤٣ م
(٢٩) زنكي يملك عانة ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م
(٣٠) توتر العلاقات بين زنكي ومسعود ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م
(٣١) زنكي في ديار بكر وماردين ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م
(٣٢) زنكي والرها ٥٣٩ هـ = ١١٤٤ - ١١٤٥ م
(٣٣) زنكي يحاصر قلعة البيرة ٥٣٩ هـ = ١١٤٥ م
(٣٤) مقتل نصير الدين حقر ، نائب زنكي في الموصل ، ٥٣٩ هـ = ١١٤٥ م
(٣٥) زنكي وقلعة فنك ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م
(٣٦) زنكي يحاصر قلعة جعبر ٥٤١ هـ = ١١٤٦ - ١١٤٧ م
(٣٧) مقتل عماد الدين زنكي ٥٤١ هـ = ١١٤٧ م
(٣٨) سيرة البطل عماد الدين زنكي :

(ا) خلقه (اوصافه الجسدية)

(ب) اولاده

(ج) سياسته

(د) زنكي والدين

(هـ) زنكي وعمارة البلاد

(و) زنكي والادارة

لعل من اصعب ما يجابهه طالب ان يتصدى لبحث لم يوفه المؤرخون حقه من الدرس والتنقيب، او لدرس شخصية من الشخصيات التي طغى عليها التاريخ، ومحا آثارها الزمان، فيحاول هو بما لديه من المصادر ان يلم بها ويبرزها الى الوجود واضحة .

لا اريد ان اقول ان بحثي في عماد الدين كان مثل هذا العمل، او ان شخصية عماد الدين نفسها هي في هذه الدرجة من الظلمة كلا . فان عماد الدين من اولئك الابطال القلائل الذين استدعوا انتباه المؤرخين، واحيطوا بشيء من العناية والعطف . ولكن جميع ما كتب حوله لا يوفيه حقه، وليس هو من التقصي العلمي بمكان، ان هو الا نتف جمعها الباحثون المحدثون من هنا وهناك وجعلوها في قالب موحد، الا انه درس بعيد عن ان يكون في مصاف الدراسات العلمية النقدية، ولا يزال عماد الدين يحتاج الى من يكرس له شظرا من اهتمامه، فيقبل على الروايات التاريخية بالدرس والنقد العلمي، ويمحص اخباره، ويحاول استخراج ما ضاع منها في بطون التاريخ حتى يخرج لنا صورة واضحة وصحيحة عن هذا البطل المغوار .

وكنت وددت لو اتاحت لي الظروف فأقيم بهذا الدرس الذي اتطلبه من غيري، الا ان ضيق الوقت حال دون ذلك، ومنعني من ان اذهب بالدرس والبحث الى آخر حدودها . على اني وان لم تقدر لي الظروف مثل هذا البحث المستقصى، فانني فخور في اني قد اوضحت في هذه الصفحات المعدودة معالم تاريخ عماد الدين، والى احاطته بشيء من الاهتمام والعطف الخاصين، حتى توفقت بما اتيت لي من الوقت القصير، ومن المصادر القليلة، الى اخراج صورة عن زكي ان لم تكن كاملة، فهي محاولة ارجو ان تكون موفقة .

ولا يفوتني في هذه المناسبة ان اذكر بكل اعجاب وتقدير ان ساعدى اليمين في هذا البحث المتواضع كان استاذى الدكتور قسطنطين زريق الذى كان يرشدني بين الفينة والفينة، ويعين لي المآخذ والمراجع، وينير لي

الطريق . فأنا مدين في بحثي الى جهود الاستاذ زريق ، ومدين ايضا الى عطفه الذي احاطني به ، والى نوره الذي نورني به ، لذا فأني اضع اسمه في مقدمة البحث ، محاطا بهالة من التقدير .

ولا اکتتم القارئ أن معظم ما استندت اليه من المصادر ، المصادر الاولية ، وذلك حسب ما يتطلبه العلم الحديث ، والفن التاريخي ، اللذين يتطلبان من طلابهما الرجوع الى الاصل دون الفرع ، لان الاصل اصفى واصح ، كالماء في نبعه اصفى منه في مجراه .

ولقد اعتمدت كثيرا في اخبار زنكي الخاصة على روايات ابن الاثير في كتابيه : الكامل ، وملوك الموصل ، لسبب واحد رئيسي هو ان والد ابن الاثير كان معاصر الزنكي وكان من اعوانه ورجاله ، ويظهر انه كان يقصر قصصه لابنه (ابن الاثير المؤرخ) فيأخذها هذا بأمانة ، ويدونها في تاريخه ، مخبرا عنها انها عن لسان والده . فأخبره اذن هي اهم من غيرها لأنها مروية عن شاهد عيان عاصر عماد الدين وماشاه وحادثه وحضر بعض حروبه وجالسه .

نذكر الى جانب مؤلفات ابن الاثير ، كتاب الاعتبار لأسامة ابن منقذ وهو من المؤرخين المعاصرين القلائل الذين كتبوا عن زنكي ودولة الاتابكة في الموصل ، واذا ذكرنا ان ابن منقذ توفي سنة ٥٨٤ هـ ، وانه من المقربين الى زنكي وابنه نور الدين من بعده ، وانه لازم الاثنيين ردحا من الزمن ، اذا ذكرنا كل ذلك ، تبين لنا قيمة ابن منقذ التاريخية بالنسبة الى بحثنا .

واخيرا اعتمدنا في اخبار حوادث الشام على ابن القلانسي المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، وهو اقرب المصادر الاولية طرا الى زمن عماد الدين زنكي .

اما فيما يتعلق بالمصادر الثانوية ، فقد كان حل اعمادنا على كتاب (Stevenson) ، وعلى مقالة Zangi في الموسوعة الاسلامية للكاتب Zettersteen اذ انهما من انتاج مؤرخين غربيين ، هما من المؤرخين القلائل الذين اهتموا بتاريخ عماد الدين ، وهذان البحثان يصلحان ان يتخذنا مثلا لوجهة نظر كتاب الغرب في هذه الشخصية العظيمة .

وفي الختام لا يسعني الا ان اعترف بحفاف الموضوع ، وخلوه
من لذة ممتعة يشعر بها الدارس ، ان ان الموضوع لم يكن سوى بحث في
الفتح والحروب ، والقتل والاسر ، وما الى ذلك من الاعمال الحربية .

٠٢ لائحة المصادر

١- المصادر الاولية

- (١) ابن القلانسي (+ ٥٥٥ هـ) ذيل تاريخ دمشق نشر ببيروت ١٩٠٨ م
(٢) اسامة بن منقذ (+ ٥٨٤ هـ) كتاب الاعتبار الولايات المتحدة ١٩٣٠ م
مطبعة جامعة برنستون
(٣) ابن الاثير (+ ٦٣٠ هـ) كتاب الكامل ج ١١٠٠
مصر - مطبعة احمد الحلبي ومصطفى محمد
(٤) ابن الاثير (+ ٦٣٠ هـ) ملوك الموصل

ب- المصادر الثانوية

(١) العربية

- (١) ابو شامة المقدسي كتاب الروضتين في اخبار الدولتين القاهرة ١٢٨٨ هـ
النورية والصلاحية وادى النيل (+ ٦٦٥ هـ)
(ب) ابو الفداء المختصر في اخبار البشر الاستانة ١٢٨٦ هـ
دار الطباعة (+ ٦٧٢)
(ج) ابن خلكان وفيات الاعيان مصر - بولاق ١٢٧٥ هـ
(+ ٦٨١)
(د) ابن الوردي تنعم المختصر في اخبار البشر مصر ١٢٨٥ هـ
(+ ٧٤٩)
(هـ) المقرئ السلوك لمعرفة دول الملوك مصر - القاهرة ١٣٤٧ هـ
(+ ٨٤٥)
(و) القرماني اخبار الدول وآثار الاول بغداد ١٢٨٢ هـ
(+ ١٠١٩)
(ز) الحنبلي شذرات الذهب في اخبار من ذهب عنيت بنشره كلية القدس ١٣٥٠ هـ
(+ ١٠٨٩)
(ح) علي الحريري الاخبار السنوية والحروب الصليبية مصر - المطبعة العمومية الطبعة الاولى ١٣١٧ هـ
(ط) الغزوي نهر الذهب في تاريخ حلب حلب - المطبعة المارونية ١٣٤٢ هـ

- ي) الخضرى محاضرات تاريخ الامم الاسلامية مصر - المكتبة التجارية الكبرى ١٩٢٦ هـ ج ٣
- ك) محمد كرد علي خطط الشام دمشق - المطبعة ١٣٤٣ هـ ج ٢ الحديثة
- ل) جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية القاهرة - مطبعة ١٩٣١ م ج ٣ العلال

(٢) الفرنجية

a) Douglas, Amanda N.

The Heroes of the Crusades.

Boston, Lee and Shepard, 1892.

b) Stevenson, W.B.

The Crusaders in the East.

Cambridge University Press, 1907.

c) Barker,

The Crusades

London, Oxford University Press, 1936.

d) K.V. Zettersteen,

Encyclopaedia of Islam,

"Zengi"

Vol. IV.

e) M. J. de Goeji

Encyclopaedia Britanica,

"Caliphate"

Vol. V, Edition 11th.

٠٣ عصر عماد الدين زنكي

لا بد لنا ونحن ندرس شخصية عماد الدين من ان نلقي نظرة على العصر الذي عاش فيه ، وما كان يتمخض فيه من الاحداث العامة ، لكي نضع صورتنا ضمن اطار محدود لا يتعداه . ومن الطبيعي اننا سوف لا ندرس العصر درسا مستقصى بحيث نستوعب جميع تفاصيله وحذافيره ، اذ ان ذلك يخرج بنا عن الموضوع الرئيسي الذي اختطناه لانفسنا ، ولكننا نلقي عليه بعض الضوء ، ونرسم له الخطوط الكبرى ، والحدود الرئيسية التي تجعله واضحا بعض الوضوح في نظر القراء . وأني اعترف من الآن ان عملي في هذا الدرس المعقضب لا يتعدى بضع ملاحظات حول هذا العصر الذي عاش فيه عماد الدين زنكي .

ان العصر الشامل الذي عاش فيه عماد الدين هو العصر العباسي الذي يمتد على ما يقارب الخمسة قرون ، منذ ١٣٢ هـ - ٦٥٦ هـ . اين يقع عماد الدين من هذا العصر؟

لقد اصطلح المؤرخون على تقسيم العصر العباسي الى اربعة ادوار كل دور يتفق ونفوذ من نفوذ الاعاجم . اما الدور الاول فهو ما يدعوه المؤرخون بدور الصراع بين العرب والموالي ، او دور نفوذ الفرس ، ويمتد من ١٣٢ - ٢٣٢ هـ . يتلوه دور النفوذ التركي ويمتد ايضا على نحو قرن من الزمن ، من سنة ٢٣٢ - ٣٣٤ هـ ثم ظهر على مسرح الدولة العربية عنصر جديد يدعى بالعنصر البويهي ، استلم مقدرات الدولة مدة تقارب القرن ، من ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ . واخيرا ظهر السلاجقة والمغول ، مدّوا ايديهم الى السلطة العليا ، وتمكنوا بما اوتوه من قوة وجبروت من التغلب على العرب وعلى البويهيين على السواء ، فقبضوا على زمام الحكم ، وسيروا دفة الحكومة على حسب آرائهم وريغباتهم . ولقد دام السلاجقة في الحكم اكثر من غيرهم ، وذلك انهم دخلوا بغداد واستلموا السلطان فيها سنة ٤٤٧ هـ^١ ولم ينزعوا الملك من ايديهم وتذهب ريحهم الا بعد قرنين او اكثر حين سقطت بغداد سنة ٦٥٦ هـ على يد هولاكو ملك التتر وطاغيتهم^٢ .

٠١ زيدان ٣ : ٩

٠٢ زيدان ٣ : ٩

من هذا العصر العباسي الطويل يقع عماد الدين زنكي في دور النفوذ السلجوقي وهو على ما رأينا رابع وآخر الادوار العباسية .

والدولة السلجوقية تختلف عما تقدمها من الدول التركية بانها لم تنشأ فرطاً للدولة العباسية^١، وانما قامت بها امة ذات بطش وسلطان حملت على المملكة الاسلامية وفتحتها بالسيف . والسلاحقة يقسمهم المؤرخون الى خمسة اقسام بالنسبة الى السلالات المختلفة التي تفرعوا اليها . فهناك^٢:

(١) السلاحقة العظام

(٢) السلاحقة في العراق

(٣) سلاحقة الشام

(٤) سلاحقة كرمان

(٥) سلاحقة آسيا الصغرى

ويهمنا من هذه الفروع بصورة خاصة، سلاحقة الشام، وهم يتحدرون من ابن لألب أرسلان يعرف بـ (تتشر)^٣ . وهؤلاء هم الذين كانوا يحكمون البلاد عندما جاء الصليبيون الى بلاد سوريا، وقد قاموا على حكم البلاد من ١٠٤٨ - ١١١٢م، حين تغلب عليهم الملك العادل نور الدين زنكي ابن عماد الدين أتابك الموصل .

ونور الدين هذا هو ابن عماد الدين الذي نحن بصدده، وكلاهما يمكن اعتبارهما كمؤسسين للدولة الأتابكية في الموصل التي يؤرخ المؤرخون ابتداءها في سنة ٥٢١هـ^٤

وكما كانت الموصل تحت حكم هؤلاء الزنكيين، كذلك كانت دمشق تحت سلطة اسرة اخرى من اسر الأتابكة ترجع الى مؤسسها الملك سيف الاسلام ظهير الدين بن طغديكين، حكمت البلاد الشامية من سنة ٤٩٧هـ - ٥٤٩هـ، حينما انتهى آل زنكي حكمها^٤.

١. زيدان ٣ : ٩ ، الخضرى ٣ : ٤٦٢ - ٤٧٣

٢. ابن الاثير ١١ : ٨١ ، الخضرى ٣ : ٤٧٠

٣. الخضرى ٣ : ٥٠٤

ظهر السلاجقة على مسرح الدولة العربية ، والمملكة العباسية قد تضععت بالانقسامات المتوالية وضعف شأن البويهيين الفرس في العراق وفارس والفاطميين العرب في مصر^١ . وكان لهم من القوة والنفوذ ما ضمن سطوتهم وسلطانهم على الخلافة والخلفاء فلم يعد لهذا المركز الكبير في هذا الدور وفي بعض الادوار التي سبقته من المقام الزمني ما كان له في عهد الراشدين او الامويين او العباسيين الاول . بل اقتصر على التمثيل الروحي فحسب كما كان البابا ولا يزال يمثل السلطة الروحية في بلاد الفرنج .

تسّم عوشر الخلافة في هذا الدور تسعة خلفاء هم بالتتابع^٢ :

القائم ، المقتدى ، المستظهر ، المسترشد ، الراشد ، المقتفي ، المستنجد ، والمستضى ، والناصر . وكلهم ذوو شخصيات ضعيفة ما خلا البعض منهم كالمسترشد والراشد والمستنجد .

ولقد اتبع السلاجقة بخلاف البويهيين سبيل تقوية الخلافة في بادئ الامر ، ولكن سرعان ما غير السلاجقة خطتهم وعاد الضعف الى الخلافة . ولكن بعض شخصيات الخلفاء كانت تحاول أن تبرز نفسها بالرغم من هذا الضعف ، وتحاول الظهور الى الميدان بالرغم من العوامل التي كانت تعمل على اخمادها ، ولعل من اجرائهم على ذلك الخليفتين المسترشد والراشد اللذين استفادا من هذه القوة الوقتية التي عادت للخلافة في بدء هذا العهد ، فحاولا ان يحكما بالفعل لا بالاسم ، وان يكون لهما السلطان على السلاجقة . فنازعوا السلاجقة في بغداد وغيرها^٣ ، وتصارع الفريقان ردحا من الزمن ، ولكن كانت الغلبة في النهاية للسلاجقة . وهذه الطفرة التي ظهرت بها الخلافة في هذا الدور لم تكن طويلة المدى ، وهي وان كانت تدلنا على شيء فانما تدلنا على ان قوة الخلافة لم تكن في يد الخلفاء انفسهم ، وانما كانت مستمدة من القوى الخارجة عن الخلافة .

١ . زيدان ٣ : ٩

٢ . الموسوعة البريطانية ٥ : ٥٢ - ٥٣ ، الخضرى ٣ : ٤٧١

٣ . الخضرى ٣ : ٤٦٢ - ٤٧٣

كذلك حاول المقتفي بعد المسترشد والراشد ان يكون له سلطة فعلية ، فحارب دولة بني مزيد القائمة في الحلة ، في قلب العراق ، وتبعه في ذلك المستنجد ، ولكن قوة هذين الخليفتين وبروزهما بحض البروز لم يكن راجعا لمحاربتهما لدولة بني مزيد ، وانما يرجع الى ان قوة جديدة بدأت تظهر في غربي البلاد ، وحاولت دعم الخلافة العباسية ، هذه القوة هي قوة الايوبيين التي اسسها البطل صلاح الدين الايوبي ، والتي كان لها القدح المعلى ، واليد البيضاء في القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر والشام ، واعادتها الى حضيرة العباسيين .

ولقد حاول الناصر كذلك أن يبرز شخصيته وأن يتخلص من نفوذ السلاجقة المحيطين به ، ولكن محاولته هذه باءت بالفشل ، وانتهت باضطرابه الى الاستنجد بقوة خارجية اخرى للتخلص من السلاجقة . هذه القوة هي قوة المغول الذين لم يهدموا سلطة السلاجقة فحسب ، بل قضاوا على سلطة الخلفاء العباسيين ايضا ، وطروا صفحة التاريخ العباسي نهائيا .

ومما زاد الدولة اضطرابا في هذا الدور ظهور الصليبيين الفرنج الذين هاجموا هذه البلاد ، وحملوا خاصة على سوريا وفلسطين ، حملات عنيفة هزت الشرق والغرب ، ولم يبذل الخلفاء جهدا فعالا في سبيل قمع حركة هؤلاء الصليبيين ، والوقوف في وجههم ، بل تركوا الحبل على غاربه ، فاحدت الفرنج في البلاد ما احده من نهب وسلب ، وما زالوا يخربون من سنة ٤٩٢ - ٥٨٢ هـ حتى اضطروا الى الهلاك بعد ان تركوا في اهل هذه البلاد آثارا اجتماعية ، عقلية ، روحية ، لا تقدر او تحصى !

من يذكر هذا العصر ، يذكر الاندلس وقد انحلت وذهبت وحدتها ، وانقسمت الى امارات ودويلات ، كما انقسمت الدولة العباسية قبلها ، وكما تولى امراء الفرس والأتراك والاكراد والعرب على فروع المملكة العباسية ، ففروع مملكة الامويين في الاندلس آلت السيادة فيها بعد بني مروان الى امراء اكثرهم من البربر

تغلب كل منهم على ما في يده منذ اوائل القرن الخامس للهجرة ، حتى جاءت دولة المرابطين ، ثم اعقبها دولة الموحيدين . وتوالى الانقسام بين تلك الدول حتى اخرج المسلمون من اسبانيا . هذا في بلاد الاندلس .

اما في مصر ، فكانت دولة الفاطميين^١ تناوى دولة السلاجقة في بلاد الشام وتناهضا .

وهكذا نرى ان العصر الذى عاشر فيه عماد الدين عصر انقسام الدولة العربية وانحطاطها ، وعهد تفكك الحكم العربي وانحلاله . هو عصر انقسم فيه الملك العربي على نفسه بحيث لم يعد تاريخ البلاد العربية تاريخا موحدا بل تاريخ دول مختلفة . دولة السلاجقة في آسيا الصغرى ، وكرمان ، والعراق ، والشام . ودولة الفاطميين في بلاد النيل . ودويلات مختلفة في افريقية ، والدويلات المستقلة في الاندلس .

هذا التفكك ، وهذا الانقسام ، فتح المجال امام بعض الشخصيات الفعالة للتدخل في شؤون الحكم ، والتأمر على الحكام واصحاب السلطان ، ومحاولة بسط النفوذ على ما يليها من البلاد . ولعل من اكبر هذه الشخصيات الفعالة الأتابك عماد الدين زنكي ، ذلك البطل المغوار ، والشهم الشجاع ، الذى دوح الاعداء ، وفتح الامصار ، وبسط فيها السلطان .

ملك عماد الدين حلب سنة ٥٢٢ هـ ، وحماة وحمص ٥٢٣ هـ ، وبعليك ٥٣٣ هـ ، وغانة ٥٣٨ هـ ، والرها ٥٣٩ هـ ، وحاصر مدينة دمشق العظيمة مرتين ، سنة ٥٢٩ هـ و ٥٣٤ هـ . وفتح عدة حصون وقلاع ، نذكر منها هنا على سبيل التمثيل قلعة صور ، وقلعة بعرين التى ملكها ٥٣١ هـ ، وقلعة شهرزور وقد اخضعها سنة ٥٣٤ هـ . وحاصر عدة قلاع منها قلعة فنك ، وقلعة جعبر سنة ٥٤١ هـ . وكانت له مع الروم وقائع وحروب شهيرة ، لعل اهمها تلك الاحداث التى حدثت بين زنكي وملك الروم سنة ٥٣٢ هـ .

كذلك كانت له وقائع مع الاكراد، وهم قوم اشداء، فما زال يحاربهم ويناضلهم حتى تغلب عليهم وكسر شوكتهم، فملك من الاكراد الحميدية قلاعها، سنة ٥٢٨ هـ، وملك من الاكراد الهكارية قلعته الشهيرة (اشب) سنة ٥٣٧ هـ، كما انه أغار على عدة حصون في ديار بكر وماردين وفتحها عنوة وقهرا، كحصون الدوق، وفطليس، وذى القرنين، واخضع عدة بلاد وملكها كطنزة واسعد وغيرهما .

كل ذلك خلا ما اتصف به هذا البطل الشهم من حميد الخلال، وجليل الفعال، وحسن السياسة وجودة الادارة، والصلاح في الدين والدنيا .

ومن يذكر عماد الدين، يذكر كلمة (أتابك) وهي تركية الاصل، معناها مربى الملك^١، فكان السلاجقة اذا امتاز احد قوادهم بهذه الميزة، يطلقون عليه لقب أتابك . وقد وصل بعض هؤلاء الأتابكة الى درجة الملك في بعض الاقاليم الاسلامية، واورثوا ابناؤهم ملكهم . من اشهر هؤلاء عماد الدين زنكي الذي استقل في الموصل، واورث ابنه نور الدين الملك من بعده . وسبب بروزه وظهوره انه ينتمي الى اسرة عريقة في البطولة والقيادة . فقد كان والد عماد الدين يدعى (اق سنقر)^٢، كان مملوكا للسلطان ملكشاه بن الب أرسلان السلجوقي، وكان معدودا من كبار القواد، جعله ملكشاه من قواد اخيه تتش، ولما ملك حلب استنابه فيها، ثم التحق بالسلطان (بركيارق) بعد وفاة ملكشاه .

وكان تتش يعني نفسه بملك العراق، فجهز الجيوش ليطو عليها، وارسل (بركيارق)^٣ اليه الجنود وعلى رأسهم (أق سنقر) فالتقى الفريقان، واقتتلوا، فانهزم من مع اق سنقر، وثبت هو، فأسر ثم قتل^٤.

وقد نشأ ابنه (عماد الدين زنكي) في كنف الدولة السلجوقية واهتم به ملوكها، واحاطوه برعايتهم، لما كان لايه من الايادى البيضاء في

٠١ كرد علي ٢ : ١٦، الموسوعة ٤ : ١٢٢٤، الخضرى ٣ : ٥٠٤
٠٢ ابن خلكان ١ : ١١٠، ستيفنسن ١٢١، الحنبلي ٤ : ١٢٨
٠٣ ابن الاثير ١١ : ٨٦
٠٤ ابن الاثير ١١ : ٨٦، ابو الفداء ٢ : ٢٠٤

حفظ بيتهم وخدمته ، فنشأ نشأة عالية ، ورعاية السلاطين تحيط به ، وحمايتهم
ترعاه ، حتى ولاة السلطان (محمود) مدينة الموصل سنة ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م ،
ليقوم بحفظها ، واصلاح شأنها ، وجعله أتابك ولده (فروخ شاه) المعروف
(بالخفاجي) ^١ ومنذ ذلك الحين ، ذاع صيت عماد الدين ، ومنذ ذلك الوقت
اشتدت شوكته ، ووطأته على من حوله . فأخذ يناوىء الروم والترك والسلاجقة
والعرب . وكان يعاصره في العراق من الخلفاء العباسيين ، المسترشد والواشد
وهما كما مر معنا من اولئك الخلفاء الاقوياء الذين كانت فيهم حماسة الشباب
وحنكة الشيخ ، فكانا يتوقان الى الحكم الفردي ، أو ان شئت فقل الى بسط
النفوذ والسلطان والحكم دون سلاطين السلاجقة ، ولكن الظروف قد ضاقت بهما
ذرعا ، وخانتهم قواهم ، وكثيرا ما تخيب الاقدار آلاما والأمنيات ، فلم يمكنا من
تحقيق ما كانا يصبوان اليه من سلطان .

ولقد تداخل أتابك في امر هذين الخليفتين ، واشترك في الخلاف
الشهير الذي نشب بين الخليفة المسترشد والسلطان مسعود . كذلك مضى عليه
زمن توترت خلاله العلاقات بينه وبين السلطان مسعود ، حتى تم الامر بينهما
الى عقد صلح سنة ٥٣٨ هـ ^٢

وسوف نرى فيما يأتي من بحثنا الشأء الذي بلغه عماد الدين ،
والشأن الذي حدث له ، حتى ليحسب لباحث اطلع عليه اطلاعا دقيقا ان ينعته
ببطل الاسلام ، في القرن السادس للهجرة . وما ذلك الا لانه قد تمكن في عصر
الانحطاط والتفكك ، وعهد التفسخ والانقسام ، من أن يجمع قوى المسلمين ، او على
الاقل ، ان يجمع شظرا من قواهم ، ويضرب بهم الافاق ، ويجوب بهم البلدان ، ويفتح
بواسطتهم الامصار ، ويزعزع بشدة شوكتهم ، ورباطة جأشهم ، عروش الروم ردحا من
الزمن ، حتى عاد في زمنه شيء من العز العربي الى الوجود ، واخذ الفرنج
يحسبون لهم حسابا .

ولعل الاستاذ (Barker) محق عندما قال في زكي ما ترجمته : -

" وعند ما استلم عماد الدين زكي الحكم في الموصل سنة ١١٢٧ م = ٥٢١ هـ ، بدأت كفة
المسلمين ترجح على الفرنج ، ولقد اوجد عماد الدين زكي لنفسه دولة موحدة تجمع الموصل ،
وحلب التي كانت لايه منذ ١١٢٥ م ، وحروران ، ونصيبين ، وديار بكر ، ومقاطعات اخرى
عديدة ؟ "

٠٤ نسبه

هو ابو الجود ، عماد الدين زنكي بن اق سنقر الملقب بالملك المنصور^١ . وتتفق جميع المصادر من اولية وثانوية على ان اياه كان يعرف بابي سعيد اق سنقر بن عبد الله الملقب بـسيم الدولة والمعروف بالحاجب ، جد البيت الأتابكي اصحاب الموصل^٢ .

كان اق سنقر ، والد عماد الدين ، مملوكا للسلطان ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقي^٣ . ولما ملك تاج الدولة تتش بن الب ارسلان السلجوقي مدينة حلب سنة ٤٧٨ هـ استنابه فيها واعتمد عليه لانه مملوك اخيه^٤ وما تذكره المصادر عن اق سنقر المذكور امر عصيانه على تتش وخروجه عليه ، مما اضطر تتش صاحب دمشق يومئذ الى محاربتة وجرت بينهما منازعات شديدة انتهت باسراق سنقر واعدامه في جمادى الاولى سنة ٤٨٢ هـ^٥ . وان جميع المصادر التي بين ايدينا تتفق على تاريخ وفاة اق سنقر في سنة ٤٨٢ هـ^٦ .

ويظهر ان اق سنقر دفن اولا في "قرينيا" في حلب ، ولما ملك عماد الدين زنكي مدينة حلب عام ٥٢٢ هـ نقل جثمان والده الى المدرسة الزجاجية التي انشأها بدر الدولة ابو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن ارتق صاحب حلب^٧ .

٠٥ ولادته

ولد عماد الدين عام ٤٧٢ هـ ، على ما يذكر ذلك ابن خلكان (١ : ٢٧٢) ، ومن يلق نظرة على الاصول العربية يجدها قليلة العناية بتاريخ مولده ، ولعل السبب في ذلك ان عماد الدين لم يكن في حياته الاولى من الشهرة

٠١ ابن خلكان ١ : ٢٧١

٠٢ ابن خلكان ١ : ١١٠ ، القرماني ٢٧٩ ، الحنبلي ٤ : ١٢٨ ، منقربوس ١٨٠ الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٤ ، باركر ٣ ، ستيفنسن ١٢١ .

٠٣ ابن خلكان ١ : ١١٠ ، الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٤ ، ستيفنسن ١٢١

٠٤ ابن خلكان ١ : ١١٠ ٠٥ ابن خلكان ١ : ١١١ ، القرماني ٢٧٩ ، ابن الاثير ١٠ : ٨٦ ، الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٤ ، ستيفنسن ١٢١

٠٦ ابن الشحنة ١٠٩ - ١١٠

بمكان بحيث يهتم بتدوين تاريخ ولادته كما يحدث لأكثر العظماء الذين تبدأ حياتهم الأولى بالخمول ثم لا يلبثون أن تقوى شخصيتهم ويتسع نفوذهم حتى يصبحوا أبطالا ورجالاً تاريخ . على أن من لم يتقصر تاريخ ولادة عماد الدين ، كما هو الواقع ، يذكر أن والده أق سنقر قتل عام ٤٨٧ هـ ، وأن ابنه عماد الدين كان حين قتل أبوه له من العمر عشر سنوات فحسب^١ ، مما يدل على أن مولده كان قبل وفاة أبيه بعشر سنوات ، أي في سنة ٤٧٧ هـ .

ولايته واسط وشحنكية البصرة . الحرب بين الخليفة ودييس

٥١٦ هـ = ١١٢٢ م

ومن المؤسف أن أخبار عماد الدين في حياته الأولى تنقطع إلى أن تصل إلى سنة ٥١٦ هـ = ١١٢٢ م ، حيث تذكر المصادر وعلى رأسها تاريخ الدولة الاتابكية (ملوك الموصل) لابن الأثير أقطاعه مدينة واسط وولايته عليها وعلى شحنكية البصرة فيقول " في سنة ٥١٦ هـ أقطع أتابك عماد الدين زنكي مدينة واسط وولى شحنكية البصرة وكان سبب ذلك الأمير ديبس بن صدقة الأسدى ، صاحب الحلة كان قد تقدم منها مع الملك مسعود والأمير جيوش بك ، فبلغ السلطان ، وانضاف إلى ذلك شكوى أمير المؤمنين المسترشد بالله منه إلى السلطان ، فأرسل إلى البرسقي يأمره بالانحذار إلى بغداد بعساكر الموصل ومحاربة ديبس فانحدر إليها في عساكره ومعه عماد الدين زنكي ، وسار عن بغداد نحو الحلة ، فلقه ديبس عند نهر بشير فانهزم عسكر البرسقي من غير قتال ، و وعاد إلى بغداد من غير قتال . فلما انهزم البرسقي لم يتعرض ديبس إلى أحد وأرسل إلى الخليفة أنه على الطاعة ثم أن السلطان ولى البرسقي شحنكية العراق جميعه وزوجه (خاتون بهشت جهان) والدة أخيه الملك مسعود ، وأقام البرسقي ببغداد وترددت الرسل بينه وبين ديبس في الصلح فلم يتم ذلك ، فأرسل ديبس عسكرا إلى واسط وكان من بها من العساكر قد كاتبوا البرسقي فصاروا

معه ، فلما سمع من بها بمسير عسكر ديبس اليهم ، ارسلوا يطلبون المدد من البرسقي ، فامدهم بالامير التونناشر الاپرى وعماد الدين زنكي ، واقطعه البلد ، وامرهم بطاعته ، فصاقوا عسكر ديبس فهزموهم واسروا اكثرهم ، وعاد الباكون منهزمين الى ديبس . واقام عماد الدين بواسط وارسل اليه البرسقي ايضا فولاه شحنية البصرة ، وامره بحمايتها فوليها وحماها ، وانتقل اليها واقام بها لحفظها لكثرة تطرق العرب اليها ، والاغارة عليها مرة بعد مرة . فلما سكنها لم تتعرض اليها احد ، وسكن ما كان بها من الفتن ، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه احد ، فازداد شأنه عظيما ، وتجنب ديبس قصد ولايته لعلمه انه لا ينال منها غرض ، وانفذ عسكرا نحو المداين ، فخاف اهل بغداد ، وعبر البرسقي الى الجانب الغربي عازما على قصد ديبس ، وناهيك هذا شرفا لعماد الدين حيث يترك ولايته مع بعدها عن بغداد ، ويقصد المداين وهي الى جانب بغداد والبرسقي في العساكر قريب منها ، وبطل الحج هذه السنة من العراق لهذا السبب . ولما ورد ديبس وعساكره الى المداين وعبر البرسقي الى الجانب الغربي لسير اليه ، ارسل الخليفة المسترشد بالله الى ديبس ينهاه عن العصيان ، ويهدده ان اصر على المخالفة بقصد بلده ، فغضب ديبس ، وحلف ليقصدن بغداد وليخرنها ويقتل اهلها ، وجمع العرب واطمعهم في نهب بغداد ، فكثرت جمعه ، فلما علم الخليفة بما كان منه سار عن بغداد ومعه العسكر ، وعليه قبا اسود وعمامة سوداء وطرحه وعلى كتفه بردة النبي (ص) ويده القضيب ، وعبر في الزبزب ومعه وزيره نظام الدين احمد بن نظام الملك ، ونقيب النقباء وشيخ الشيوخ صدر الدين اسماعيل وقاضي القضاة الزيني . فلما سمع البرسقي بمسير الخليفة ركب وعاد الى لقاءه فحين رأى الشمسية ترجل هو ومن معه وقبلوا الارض ، فلما نزل الخليفة في الخيمة احضر البرسقي والامراء واستحلفهم ، ثم سار نحو الحلة ، وقد تأخر ديبس عن المدائن ، ورتب البرسقي عسكره فجعل في الميمنة عماد الدين زنكي في عسكره والامير ابا بكر الياس البكجي ، ووقف الخليفة في موكبه خلف العسكر بحيث يرويه والقرآن بين يديه ، والمصاحف منشورة ، وتقدم الى اهل بغداد بقراءة القرآن والدعاء له ، فختموا ذلك اليوم الف ختمة ودعوا له بالنصر ، فلما تواقفت العساكر حملت ميسرة

ديس ومقدمها عنتر ابن ابي العساكر على الامير ابي بكر الياس ومن معه
فتراجعوا على اعقابهم ، ثم حمل عليهم عنتر حملة ثانية فكان حالها الاولى
واشرفوا على الهزيمة ، فلما رأى عماد الدين زنكي ذلك حمل في عسكر واسط
على عنتر واصحابه واطبقه من خلفه وعاد الامير ابو بكر فبقى عنتر ومن معه
في الوسط فاخذوا في اليد وقتل منهم الكثير ، وكان البرسقي قد جعل له
كمينا ، فلما اشتدت الحرب ظهر الكمين من وراء عسكر ديس ، فالتقوا نفوسهم في
النيل فغرق منهم خلق كثير سوى من قتل واسر . ولما رأى المسترشد بالله
فعل عنتر بيمينه البرسقي وان من بها قد اشرف على الهزيمة جرد سيفه وتقدم
وهو يكبر وقد عزم على ان يباشر الحرب بنفسه فكفاه عماد الدين ، فلما تم الظفر
قدمت الاسرى الى المسترشد بالله فامر بقتلهم ، ووقع نساء ديس وسرايره في الاسر
غير زوجته ، ابنة ايلغازى بن ارتق وابنة عميد الدولة بن جهير فانهما كانتا بالحسين
كانت هذه الواقعة في اول المحرم سنة ٥١٧ هـ . وعاد المسترشد الى بغداد^١

ثم اتفق أن غادر ديس العراق ولحق بطغرل ، فأمنت البلاد واستقرت
الاحوال فيها فارسل السلطان محمود الى البرسقي يأمره بالعودة الى الموصل
لمحاربة الفرنج . وولى شحنية بغداد رجلا يعرف " ببرتقش الزكوى " ، فنزل البرسقي
عند ارادة السلطان وعاد الى الموصل عام سبع عشرة وخمسائة للهجرة ، وكان
عماد الدين زنكي حينئذ بالبصرة فارسل البرسقي اليه يعلمه الحال ويستدعيه
ليسير معه الى الموصل^٢ . وجاء عماد الدين زنكي الخبر باستدعائه فاضطرب
ردحا من الزمن وجمع اصحابه وقال لهم " قد ضجرنا مما نحن فيه كل يوم قد
يملك البلاد امير وثو^٣مر بالتصرف على اختياره وارادته ، ثم تارة بالعراق وتارة
بالموصل وتارة ببلاد الجزيرة وتارة بالشام ، فبم تشيرون اصنع ؟ فقال له زين
الدين علي بن بكتكين وكان اوثق اصحابه عنده واكثرهم صحبة له فقال - يا مولانا -
التركان تقول في امثالهم اذا اراد الانسان ان يضع على رأسه حجرا فليكون

١ . ملوك الموصل ٤٥ - ٥٠

٢ . ابن الاثير ٥٠

من جبل كبير ولكن نحن اذا كنا لا بد وان نخدم الناس فلأن نخدم السلطان
اولى^١ . فقم ذلك الرأي من عماد الدين موقع القبول وسار من البصرة يريد
السلطان واقام عنده زمنا ولكنه لم ير منه ما كان يأمله من حسن اللقاء وانفق
ما كان لديه من مال ، وكان كلما ضاق به الأمر يقول لزين الدين " يا على قد
وضعنا على رؤوسنا حجرا عظيما كما اردت^٢ . على انه صدف أن خرج السلطان
يوما ليلعب بالكرة فدخل الميدان واخذ الجوكان بيده واستدعى عماد الدين زنكي
وناوله اياه قائلا له " العب معنا . ثم التفت السلطان الى الامراء وخاطبهم
قائلا - اما تستحون يجرى اليكم فلان وهو من قد عرفتموه وعرفتم محل والده
في الدولة فلم يكن فيكم من يحمل له شيئا ولا يحمل له دعوة ، والله لقد تركته
لم ارسل اليه نفقة ولا اعطيته اقطاعا لانظر فعلكم^٣ . وبالغ السلطان في لومهم
لتقصيرهم ثم قال لعماد الدين " لقد زوجتك امرأة الامير كندغدي " وامر له
بمال . وكان الامير كندغدي هذا من اكابر امراء السلطان محمد والسلطان محمود ،
وكان السلطان محمود قد جعله مع اخيه الملك طغرل اتابكا له ومدبرا لدولته ،
وشجعه على شق عصا الطاعة على اخيه طغرل وجمع له العساكر الكثيرة ، ومنذ
ذلك الوقت بدأ شأن كندغدي يعظم وخطره يتفاقم ولكنه لم يلبث ان قضى نحبه
في تلك السنة ، مخلفا ولدا صغيرا وزوجة هي التي زوجها السلطان محمود بعماد
الدين زنكي^٤ .

٠٧ . اقطاعه البصرة ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م

ومن اشهر ما تذكره المصادر حول حياة عماد الدين السياسية
اقطاعه البصرة عام ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م . وسبب ذلك انه قد بلغ مسامح السلطان
محمود بان العرب قد اجتمعت ونهبت البصرة ، فامر عماد الدين بالمسير اليها
واقطعه اياها^٥ لما كان قد بلغه عنه من حمايته لها في العام الماضي . ثم انه

٠١ . ملوك الموصل ، ٥٠

٠٢ . ملوك الموصل ، ٥٠

٠٣ . ملوك الموصل ، ٥٠

٠٤ . ملوك الموصل ، ٥٢ ، "ستيفنسن"

اتى الى السلطان ايضا خبر بان الخليفة قد جمع عساكره كانما هو يريد الحرب فتقدم السلطان الى عماد الدين بمراعاة احوال واسط والنظر في امرها ، فان قصدها جئد الخليفة حاول حفظها من غارات العرب . وهكذا كانت لعماد الدين في العراق مهمة مزدوجة ، ولاية البصرة وحماية واسط . فامر عماد الدين الى البصرة واقام فيها واحسن معاملة اهلها ، وامنهم شر غارات العرب ، وذلك بانه كان يرسل فرقا من جيشه الى اضراف البلاد فيوقعون بالاعراب الغزاة ، فأمنت البلاد على عهده ، وسارت شوطا بعيدا في طريق الاستقرار والاطمئنان ، وبلغ ذلك اسماع السلطان محمود فارتاح له واطمأن اليه وعظم شأنه عنده^١ .

٠٨ ولاية شحنكية بغداد ٥١٩ هـ = ١١٢٥ م

وبعد ان تولى عماد الدين البصرة سنة ٥١٨ هـ ، تذكر الاصول خبر ولايته شحنكية بغداد عام ٥١٩ هـ = ١١٢٥ م . وكان ذلك على اثر نفرة حصلت بين برتقش الزكوى شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله ، فتهدده الخليفة فما كان منه الا ان سار الى السلطان في رجب سنة تسع عشرة وخمسائة للهجرة شاكيا من المسترشد بالله ، محدرا السلطان منه ، واخبره بانه قد جمع عساكره يريد منعه عن العراق . فجهز السلطان جيشا لمقاتلة جيش الخليفة وسار نحو بغداد ، فارسل اليه الخليفة ان لا يقترب من بغداد في هذه الآونة لخراب البلاد وللغلاء المستحوز عليها باذلا له على الرجوع عن رأيه مالا كثيرا . ولكن السلطان لم يأبه بكل ذلك ، بل سار في طريقه الى بغداد حتى اذا بلغ الخبر مسامع الخليفة نزح هو واهله وحرمه وارياب المناصب الى الجانب الغربي من بغداد في ذى القعدة سنة ٥١٩ هـ = ١١٢٥ م وكان لنزوحه وقع سييء لدى اهل بغداد ، فارسل اليه السلطان يستعطفه ويطلب اليه ان يعود الى داره ، فأرسل اليه الخليفة كتابا شديد اللهجة مما ادى الى غضب السلطان ومسيره الى العراق بجيوشه . فارسل الخليفة عفيفا الخادم في عسكر له الى واسط وكان فيها عماد الدين زنكي يحميها من الغارات ، حتى اذا وصل عفيف حدود واسط ارسل اليه عماد الدين يحدّره القتال ، ويأمره ان يعود ادراجه ، فلم يلتفت

اليه بل واصل سيره حتى نزل بالجانب الغربي منها ، فعبر اليه زنكي وقاتله قتالا شديدا فهزمه واضطر جنده للهرب بعد ان قتل منهم الكثير وأسر اكثر .
وفي هذه الاثناء وصل السلطان الى بغداد في ٢٠ ذى الحجة ونزل بمكان يعرف (بالشماسية) ودخل بعض عسكره بغداد وكان الخليفة قد جمع اليه السفن جميعها وسد ابواب دار الخلافة الا واحدا منها امر حاجبه ابن الصاحب بالمقام فيه وحفظه . ولم ينزل السلطان يرأسل الخليفة بالعودة ويطلب الصلح وهو يمتنع الى ان دخل بعض عسكر السلطان دار الخلافة في محرم سنة ٥٢٠ هـ ونهبوا التاج ، فضج اهل بغداد ونادى السلطان بالناس ، فجرت بين الفريقين مناوشات عظيمة كان بأثرها ان عبر الخليفة الى الجانب الشرقي من بغداد ومعه (٣٠ الف) مقاتل ، فحفروا الخنادق في الليل وحفظوا بغداد من عسكر السلطان . فلم ير السلطان بدا من الاستجداد بعماد الدين زنكي ، فأمره ان يحضر بنفسه ومعه المقاتلة في البر والماء وان يكثر من السفن مهما امكنه ، فجمع السفن من البصرة وواسط والبطائح ، ولم يترك ما بين بغداد والبصرة سفينة الا استصحبها وشحنها بالمقاتلة ، واصعد في البر والسفن تساييره في الماء ، فلما قرب بغداد نشر الاعلام واطهر السلاح واخرج بعض من في السفن الى البر فأمتلأت الارض والماء رجالا وسلاحا ، فوأي الناس منظرا عجيبا ، وعظم ذلك في اعينهم ، وركب السلطان والعساكر ، فروا ما ملأ قلوبهم وعيونهم ، وازداد عماد الدين زنكي عند السلطان منزلة واستدل على كفايته وحسن سياسته^١ . حينئذ راسل الخليفة السلطان طالبا الصلح ، وترددت الرسل بينهما ، فاصطلحا وعاد ما كانا عليه واعتذر السلطان مما جرى .

واقام السلطان ببغداد الى عشر ربيع الاخر ، ولما اراد الرحيل نظر فيمن يصلح ان يتولى شحنة بغداد والعراق ، يأمن معه من الخليفة ولضبط الامور فلم ير في امرائه واصحابه من يصلح لسد هذا الباب العظيم ، ويرقع هذا الخرق ويمنعه من الاتساع غير عماد الدين زنكي ، فولاه شحنة العراق مضافا الى ما بيده من الاقطاع^٢.

٠١ ولاية الموصل وسائر بلاد الجزيرة ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م

ومما يجب ذكره بعد تولية عماد الدين شحنية العراق ارتقاؤه الى ولاية الموصل في ١٠ رمضان ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م ، ولا اعتقد ان تاريخ ولايته على الموصل يستوجب الشك وذلك ان جميع المصادر التي بين ايدينا من اولية وثانوية تتفق كل الاتفاق على هذه السنة وهي سنة ٥٢١ هـ . وكانت الموصل اذ ذاك في يد اق سنقر البرسقي ويجدر بنا في هذه المناسبة ان نأتي على ذكر كيفية تولية عماد الدين الموصل على اثر وفاة صاحبها البرسقي . وقد اجمع الرواة على ان اق سنقر البرسقي قتل يوم الجمعة من سنة ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م في الجامع الضيق في مدينة الموصل ، وكان الذي تأمر على قتله جماعة من الباطنية على ما يقول صاحب ملوك الموصل (٥٨ ص) ويوافقه في ذلك (ابن الوردي ٢ : ٣٣ ، سغيفسن ١٢٢ ، وابن القلانسي ٢١٦) . وبعد مقتل البرسقي قام بالموصل ابنه عز الدين مسعود وارسل الى السلطان ان يقره على البلاد ، فأجابه الى ذلك وقره على ما كان لايه من الاعمال فضبط البلاد وقام فيها المقام المرضي^٢ . ولم يطل امره في ولايته الجديدة وذلك انه عاجلته منيته فقضى نحبه وهو لا يزال في عنفوان شبابه بعد مضي سنة من ولايته . ويؤرخ صاحب ملوك الموصل وفاته سنة ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م^٣ فخلفه في ولاية الموصل اخوه الاصغر ، وكان يساعده في تدبير اموره وتسيير دفة الحكم احد مماليك ابيه وهو الامير جاولي^٤ ، وفعل الوالي الجديد ما كان قد فعله اخوه الاكبر من ارساله الى السلطان يطلب اليه اقراره على البلاد بان لا على ذلك اموالا كثيرة^٥ ، وكان واسطة ذلك القاضي بهاء الدين ابا الحسن علي بن الشهرزوري ، وصلاح الدين محمد الباغسياني^٦ ، فحضرا اصبهان ليخاطبا السلطان في ذلك وكانا يخافان الامير جاولي ولا يرضيان بطاعته والتصرف

-
- ٠١ ابن الاثير ١٠ : ٢٤٥ ، المقريزي ١ : ١ : ٣٥ ، ابن خلكان ١ : ٢٧١ ، الروضتين ٣٠ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، الحريري : ٤٦ ، منقوريوس ١٨٠ ، ابن الوردي ٢ : ٣٣ ، ابن القلانسي ٢١٧ ، باركر ٣٣ - ٣٤ ، سغيفسن ١٢٢ ، ملوك الموصل ٥٩ .
- ٠٢ ملوك الموصل ٥٩ ٠٣ ملوك الموصل ٥٩ ٠٤ الحريري ٤٦ ، الروضتين ٣٠ ، ابن الوردي ٣٣ ٠٥ ملوك الموصل ٥٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٣
- ٠٦ ملوك الموصل ٥٩ - ٦٥ ، الروضتين ٣٠ .

بحكمه ، فاجتمع صلاح الدين ونصير الدين جقر وهما من اعظم اصحاب عماد الدين منزلة ، وكان بين نصير الدين وصلاح الدين ماهرة فذكر له صلاح الدين ما قدم له فخوفه نصير الدين من جاولي وتخكمه على صاحبه وقال له أن رأيت ان تطلب البلاد لعماد الدين فهو الرأي فأجابه الى ذلك واخذه الى القاضي الشهرزوري وتحادثا معه ووعداه نصير الدين ومناه وضمن له عن عماد الدين من الاملاك والاقطاع ما جاوز امله ، فأجاب بهاء الدين ايضا ، وركب هو وصلاح الدين الى دار الوزير وهو يومئذ انوشروان بن خالد فقال له " قد علمت انت والسلطان ان بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج عليها وتمكنوا منها وقويت شوكتهم وقد كان البرسقي يكف بعض عاديتهم فمذ قتل ازداد طمعهم وهذا ولده طفل ولا بد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمي حوزتها وقد انهينا الحال اليك لئلا يجرى خلل او وهن على الاسلام والمسلمين فنحصل نحن بالاثم من الله واللوم من السلطان ، فانهى الوزير ذلك الى السلطان فقال - من تريان يصلح لهذه البلاد فقد نصحتما لله وللمسلمين ؟ فذكرا جماعة بينهم عماد الدين زنكي ، وعظما محله اكثر من غيره ، فقال السلطان الى توليته لما علم من شهامته وكفايته وعقله لما تولاه ، فاستقر الحال وولاه البلاد جميعها وكتب منشوره الى بغداد^١ . وسار الزنكي الى البوازيج يملكها^٢ ويتقوى بها ويجعلها ظهره ان صده جاهلي عن البلاد ، فلما استولى عليها سار عنها الى الموصل فحين ان وصل خرج جاولي الى لقائه ، وقبل الارض ثم قبل يده وعاد في خدمته فاقطعه الشهيد الرحبة واعمالها وسيره اليها^٣ ، واقام هو بالموصل يصلح امورها ويقرر قواعدها^٤ ، فولى نصير الدين دزدارية القلعة في الموصل وفوض اليه امر الولاية جميعها ، وجعل الدزدارية في قلاع البلاد لنصير الدين ايضا^٥ وجعل بهاء الدين قاضي قضاة بلاده جميعها^٦ . وجعل صلاح الدين محمد الياغسياني اميرا حاجبا .

-
- ١ . ملوك الموصل ٥٩ - ٦٥ ٢ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٦
٣ . ملوك الموصل ٦٥ ٤ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٦ ، الروضتين ٣٠ ، ابوالفداء ٢ : ٢٣٩ ،
ملوك الموصل ٦٥ ٥ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٦ ، ابن القلانسي ٢١٧
٦ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ملوك الموصل ٦٥ ، ابن القلانسي ٢١٧ ، الروضتين
ابن الاثير ١٠ : ٢٤٦ ، الروضتين ٣٠ ، ابن القلانسي ٢١٧ ، ملوك الموصل ٦٥

وهكذا تمت لعماد الدين ولاية الموصل وعظم شأنه عند السلطان وطار
صيته في الافاق . ويجدر بنا قبل ان نجوز ذلك الى غيره من الاخبار ان نأتي
بنظرة وجيزة على حال البلاد حين تولّاها عماد الدين زنكي واستبشار الجميع
بهذا الوالي الجديد ، ومسير الموصل في عهده اشواظا بعيدة نحو الاستقرار
فنقول " كان الفرنج قد اتسعت بلادهم ، وكثرت اجنادهم ، وعظمت هيبتهم ، وزادت
صولتهم ، وتضاعفت سطوتهم ، وعلا شرهم ، واشتد بطشهم ، وامتد على بلاد الاسلام
ايديهم ، وضعف اهلها من كف عاديّتهم ، وتتابع غزواتهم ، وساموا المسلمين سوء
العذاب ، واستطار في البلاد شرر شرهم ، وعم اهلها شديد جفوههم وعظيم قهرهم ،
فنجوم سعد المسلمين متكدرة ، وسماء عزهم منقطرة ، وشمس اقبالهم مكورة ، ورايات
المشركين خلال ديار الاسلام منشورة ، وانصارهم على اهل الايمان منصوره^١ وكانت
مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين الى عريش مصر ، ولم يتخللها من
ولاية المسلمين غير حلب وحمص وحمّاة ودمشق ، وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر
الى آمد ، ومن ديار الجزيرة الى نصيبين . " فاستئصلوا مالها من أثاث وعين ، واما
الرقّة وحرّان فقد كان اهلها معهم في ذل وصغار وانقطعت الطرق الى
دمشق الاعلى الرحبة والبر ، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف وركوب
المغازة تعباً ومشقة ومخاطرون باموالهم وانفسهم ثم زاد الامر وعظم الشر
حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً واثاوة يأخذونها منهم ليكفّوا ايديهم
عنهم وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً ، وللكافرين قدرة واقتاراً .
واما حلب فانهم اخذوا مناصفة اعمالهم ، واما باقي بلاد الشام فكان حالها اشد
من هذه فحينئذ اراد الله ان يسلط على الفرنج من سوء افعالهم ويجازيهم ،
فيرسل على شاطئ الصليبان رجوماً منهم تهلكتهم وتغنيهم ، فتولى الشهيد عماد الدين
زنكي امرهم ، ان لا امضى منه عزماً ، ولا انفذ منه سناناً ، فتولى رعاية الجمهور
فغزا الفرنج في عقر دارهم ، فاصبحت اهلة الاسلام مبدرة بعد سراها ، وشموس
الايمان منيرة بعد ظموس انوارها .^٢

١ . ملوك الموصل ٥٩

٢ . ملوك الموصل ٥٩ - ٦٥

ولما فرغ زنكي من امر الموصل وتقرير قواعد الجنود ، سار نحو جزيرة ابن عمر فحصرها وبها بعصر معاليك البرسقي ، فامتنع بها ثقة بحضانتها ، وظنا منه انها تحميه ، فراسله عماد الدين وبذل له ورغبه ، فلم يصغ الى ذلك ، حينئذ جد زنكي في قتالها ، وبينه وبين البلد دجلة ، فأمر الناس فالتقوا انفسهم في النهر ، بعضهم سباحة وبعضهم في السفن ، وتكاثروا على اهل الجزيرة ، وكانوا قد خرجوا عن البلد الى ارض تعرف بالزلاقة ، يمنعون عبور الجند ، فعبرت العساكر ، والتقى الجيشان ، فانهزم عسكر الجزيرة ، فلما رأى اهل البلد ذلك راسلوا زنكي وطلبوا منه الامان ، فأجابهم الى ذلك وتسلم البلد ، ودخله وعسكره .^١

دانت الجزيرة ، جزيرة ابن عمر ، لامر عماد الدين زنكي وخضع له من فيها وسار صيته في آفاقها وكان امره لا يزال آخذا بالتفاهم وسلطانه بالاتساع ، وكان عماد الدين الى جانب قوته ونفوذه وسلطانه كثير الظموج واسع الافق لا يرضى بما استولى عليه من البلاد ، بل هو يسعى لتوسيع نفوذه الى اكثر من ذلك لذا نراه يشن غاراته ويقود جيوشه بهجمات متتابعة شرقا وغربا ، يخضع البلاد ويجعلها تحت امره . خرج من الجزيرة بعد ان اقر سلطانه فيها وسار متجها نحو نصيبين ، وكانت اذ ذاك لحسام الدين بن تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين وغيرها ، وما ان بلغ خبر سيره اليها مسامع صاحبها حسام الدين ، حتى قام اليه ليرده عنها ، فسار الى ابن عمه ركن الدولة داود بن مسقمان صاحب حصن كيفا يطلب منه النجدة في دفع زنكي عن نصيبين ، فوعده خيرا وعاد حسام الدين الى ماردين . ويذكر صاحب كتاب ملوك الموصل ص ٦٧ ، ان حسام الدين المذكور بعد مقابلته لابن عمه ارسل رقاعا على احنة الطير الى نصيبين يعلم من بها من الاجناد انه وابن عمه ركن الدولة سائران في العساكر الكثيرة ، وبأمرهم يحفظ البلد ٣ ايام . ولكن لم يتم الامر لحسام الدين وذلك ان الطير الذي كان قد ارسله مع الرقاع قد سقط على احدى خيام معسكر زنكي وقد حانت من الشهيد هذا الثقافة الى الطير فأمر بصيده فصيد وأتى به اليه فهجد الرقعة فيه

١ - ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ملوك الموصل ٦٦ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٣ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥

ففتحها فاذا بها الرقعة المذكورة : فأمر حينذاك بكتابة رقعة غيرها مؤداها
"من حسام الدين ، انني قصدت ابن عمي وقد وعدني بالنصرة والمسير في
العساكر وما يتأخر وصوله الينا اكثر من ٢٠ يوما ، وبأمرهم يحفظ البلد في هذه
الايونة " ، وشدها على جناح الطائر وارسله . جاء الطائر بالنبأ الى جند حسام
الدين فالتقطوه مستبشرين ، ولكنهم لم يلبثوا ان قرؤا الرقعة حتى ارتعدت فرائضهم
خوفا وجزعا وتملكهم الشعور بالعجز عن حفظ البلد طيلة هذه المدة ، فاضطروا
لمصانعة زنكي وارسلوا اليه يسترضونه ويعرضون عليه القلعة ، فجاءهم عماد الدين
بجيوشه وتسلم القلعة وخضعت بذلك نصيبين لامره^١.

وبعد استيلائه على نصيبين سار عنها الى سنجار ، فامتنتت عليه
وقاتله من بها ردحا من الزمن ولكنهم لم يصدوا لقوى عماد الدين فسلموها
اليه واصبحوا في خدمته^٢.

ثم قصد زنكي بعد هذا الخابور فلم يستعص عليه وملكه جميعه^٣
واكمل عماد الدين طريقه الى حران^٤ وهي للمسلمين كان اهلها مع الفرنج في
ضيق عظيم^٥ وذلك لخلو البلاد من حام يذب عنها او سلطان يمنعها^٦ ، فلما
بلغ اهلها اخبار مسير عماد الدين استبشروا خيرا وراسلوه بالطاعة واستحثوه على
الوصول اليهم ، فسار اليهم مجددا^٧ وخرج اهلها للقاءه فتسلمها وتم له الامر فيها^٨
ثم سار عماد الدين قاصدا مدينة الرحبة فافتتحها قسرا واقطعها للامير جاولي
مملوك البرسقي الذي مر معنا ذكره^٩.

-
- ١ ملوك الموصل ٦٧ ، ا بوالفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٣ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥
 - ٢ ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ملوك الموصل ٦٧
 - ٣ ابن الاثير ١٠ ، ٢٤٧ ، ا بوالفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٣
 - ٤ ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧
 - ٥ ملوك الموصل ٦٧
 - ٦ ا بوالفداء ٢ : ٢٣٩
 - ٧ ملوك الموصل ٦٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٣ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥ ، باركر ٣٤
 - ٨ ملوك الموصل ٦٥ ، الروضتين ٣٠ ، ا بوالفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٣

وهكذا تم لعماد الدين فتح القسم الأكبر من الجزيرة العامرة بما فيها مدينة الزلاقة، ونصيبين، وسنجان، والخابور، وحران، والرحبة . وكان عماد الدين تسوله نفسه ان يتم فتوحاته في الشرق ولكن هناك حجرا منيعا يحول دون ذلك، او ان شئت فقل يزيد في صعوبة الفتح وخطورته ذلك ان قوة الفرنج التي كانت متمركزة حول الرها وما يليها من البلاد كانت تهدد عماد الدين وجيشه . فلم يجد عماد الدين لتتيم فتوحه بدا من مهادنة الفرنج وامن جانبهم، وعلى ذلك واسل جوسلين صاحب الرها وغيرها من البلاد يطلب منه المهادنة، فلبى هذا الطلب واستقر الصلح بينهما^١ فوجد عماد الدين زكي بعد هذا الصلح نفسه متفرغا للاستيلاء على ما يقى من البلاد الشامية والجزرية، واصلاح شأنها^٢.

ولا بد لنا قبل ان نختم الكلام عن ولاية عماد الدين الموصل من ان نذكر حادثة لعلها ابلغ واقع ما يمكن ان يقترن باسمه في هذا الدور من حياته . ذلك انه في غضون سنة ٥٢١ هـ بعد ان استقر له الامر في الموصل وتقلد الاحكام فيها، اوكل اليه السلطان محمود القيام بامر تهذيب وتربية ولديه الب ارسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي، فاستحق بذلك لقب اتابك وهو لقب كان يمنحه السلاطين لمن يقوم بتربية اولادهم . وبعد هذا عرف عماد الدين زكي، "بالأتابك"^٣

١٠ . ملكه حلب ٥٢٢ هـ = ١١٢٩ م

قلنا ان عماد الدين كان قد حاول مهادنة جوسلين صاحب الرها ليأمن جانبه فيتفرغ للاستيلاء على ما بقى من البلاد الشامية والجزرية، وكان قد تم له ما اراد من الاستقرار في البلاد التي فتحها ومن الاطمئنان من جانب الفرنج

٤ . ملوك الموصل ٦٩

٢ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٩، ملوك الموصل ٦٩، الروضتين ٣٠

٣ . ابن خلكان ١ : ٢٧٢، القرطبي ٢٧٩، الحنبلي ٤ + ١٢٨، كرد علي ٢ : ١٦

الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٤

، فأستمر في فتوحه نحو الغرب واعظم ما يقرب باسمه من هذه الفتوح استيلاؤه على مدينة حلب الشهباء المنيعة في اول محرم عام ٥٢٢ هـ كما تظهر ذلك المصادر التي وقفت عليها^١ . وينفرد ان القلانسي في رواية له في كتابه ص ٢١٨ بان فتح عماد الدين لحلب كان في شهر شعبان من عام ٥٢١ هـ . ونحن لا يمكننا الا ان ننظر الى روايته هذه نظر الشك والريبة لانفرادها بها ، بين ان جمع المصادر سواء مجمعة على سنة ٥٢٢ هـ = ١١٢٩ م ، ونحن نعلم ان قواعد المصطلح لا تظمن لرواية انفرد بها راو واحد مهما بلغ من عدله وضيظه . قلنا ان عماد الدين استولى على حلب . ولا بد لنا ان نذكر في هذه المناسبة كلمة عن حالة حلب قبل ان يفتحها صاحبنا وكيف تم له فتحها .

كانت مدينة حلب منذ سنة ٥١٨ هـ خاضعة لامر البرستي ولامرابنه مسعود من بعده . على انه عندما قتل البرستي في الموصل اضطربت الاحوال وحاول الافرنج اخذ حلب ونهبها^٢ مما اضطر مسعود لمغادرة المدينة واستنابته عنه اميرا اسمه (قومان) ثم اولى عليها اميرا آخر اسمه "قتلغ ايه" وسيهر بتوقيع الى قومان بتسليمها . فقال قومان لقتلغ "ان بيني وبين عز الدين علامة لم ارها ولا اسلم الا بها^٣ . وكانت العلامة بينهما صورة غزال ، فعاد قتلغ ايه الى مسعود وهو يحاصر الرحبة فوجده قد توفي فاضطر الى العودة الى حلب مسرعا ، وعرف الناس بموت الامير مسعود ، فسلم الرئيس "فضائل بن يديع" البلد واطاعه المقدمون به واستنزلوا قومان من القلعة ، واعطوه الف دينار ، وتسلم قتلغ القلعة في الرابع والعشرين من شهر جمادى الاخرة سنة ٥٢١ هـ .

ولكن يظهر ان قتلغ المذكور اخذ يسيء السيرة في البلاد فأحاط اهلها بالعسف والظلم^٤ ، ولم يكتف بذلك ، بل اخذ يمد يده الى اموال الناس

-
- ١ ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ملك الموصل ٦٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٤ ، ابو الفداء
 - ٢ ٢٣٩ : ٢ ، ابن الغزى ٣ : ٨٧ ، ابن الشحنة ١١٠ ، القرمانى ٢٣٩ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥
 - ٣ ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ابن الغزى ٣ : ٨٧ ، ابو الفداء ٢٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٤ ، كرد طبع ٥ : ٢ ، الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٥
 - ٤ ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، كرد علي ٢ : ٥

لا سيما الزكاة فنفرت منه قلوب الناس، وانصرفت عنه الى زعيم آخر في حلب سبق ان تولى عليها وهو " بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن ارتق " فالتف الناس حوله واطاعوه، وأمرّوه على انفسهم^١ . ثم انهم جمعوا فلولهم وقاموا ليلة الثلاثاء ثاني شوال وقبضوا على كل من كان بالبلد من اصحاب قتلغ وزحفوا الى القلعة^٢ يريدون قتلغ . ولكن هذا كان قد تحصن في قلعته وامتنع بها^٣ فسار اليه اصحاب سليمان بن عبد الجبار وحاصروه في القلعة . وفي هذه الاثناء وصل حلب حسان صاحب منبج " و "حسن صاحب بزاعة " لاصلاح الامر فيها . ولكن مما زاد في الامر خطورة ان اخبار الاضطرابات القائمة في حلب قد بلغت اسماع الفرنج وعلى رأسهم جولسين صاحب الرها ، وكان الفرنج قد استضعفوا بلاد الشام الاسلامية فتابعوا الغارات على اهلها وقصدوها محاصرين لها لخلوها من حام ومانع وقد قوى طمعهم في ملك ما بقي في يد المسلمين من البلاد ، وكانت اضطرابات حلب مناسبة جديدة لتدخلهم ، لذا اراد جولسين هذا ان يغتتم الفرصة ، فرصة هذا الاضطراب وضم حلب الى ملكه ، فتقدم اليها بجيش جرار قصع بمال فرجع عنها^٤ واضطرب حبل الامن في حلب ، واشرف الناس على خطر عظيم الى منتصف ذى الحجة من السنة نفسها^٥ وكان عماد الدين صاحب الموصل والجزيرة قد سير الى حلب الامير سنقر دراز والامير حسن قراقوش^٦ وهما من اكابر امراء البرسقي ، ومعه التوقيع من السلطان بالموصل والجزيرة والشام ، فاستقر الامر ان يسير بدر الدولة بن عبد الجبار و (قتلغ ابيه) الى الموصل ، الى عماد الدين زنكي ، فسار اليه و^٣ قام حسن قراقوش بحلب واليا عليها ولاية مستعارة^٧ ، فلما وصل بدر الدولة وقتلغ الى عماد الدين اصلىح بينهما ولم يردّ واحدا منهما الى حلب . وسير حاجبه صلاح الدين محمد الياغيساني اليها في عسكر فصعد الى القلعة وملكها ورتب الامور فيها^٨ ثم سار عماد الدين بنفسه

- ١ . ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، الكامل لابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ابن الوردي ٢ : ٣٤ ، كرد علي ٢ : ٥
- ٢ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ٠٣ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٤
- ٣ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ابن الغزالي ٣ : ٨٨ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩
- ٤ . الحريري ٤٧ ، ابن الوردي ٢ : ٣٤ ، كرد علي ٢ : ٥
- ٥ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ٠٦ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٤
- ٧ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٧
- ٨ . ابن الاثير ١٠ : ٢٤٨ ، ابو الفداء ٢ : ٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٣٤ ، كرد علي ٢ : ٥

الى بلاد الشام ، فلما سمع اهل حلب به وبقره منهم راسلوه يستغيثونه ، ويستنصرونه
واذعنوا له بالطاعة ، فعبر الفرات وسار اليهم وملك مدينة منبج من حسان^١ ، وحصن
بزاعة الذي كان في يد بني دمرdash^٢ ، ويظهر ان عماد الدين قد غدر باهل
الحصن المذكور وقتل منه ما شاء ، واسر وسبي فتنصر القاضي و ٤٠٠ شخص من
اهلها^٣ .

وسار زنكي بعد هذا الى حلب فاستبشر به اهلها وتسلم البلد^٤
ويجدد بي ان اورد بالنصر ما ذكره صاحب كتاب الدولة الاتاكية ملوك الموصل من
مجيء عماد الدين حلب واستبشار اهلها به . يقول ابن الاثير في كتابه الدولة
الاتاكية ما نصه " وسار الى حلب فالتقاء اهلها ، واطهروا من الفرج والسرور ما لا
يعلمه الا الله ، وكان ملكه لها سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، ولو لا ان الله من
عليها بولاية الشهير^٥ ، لكان الفرنج قد استولوا عليها وعلى بلاد الشام ، فانهم كان
لهم من اتابك طغديكين شاغل ومانع عن بعض اغراضهم ، وكانوا متى حصروا حلب وغيرها
جمع طغديكين عسكره وسار نحوهم فيرحلون ، فقدد الله تعالى ان توفي سنة اثنتين
وعشرين وخمسمائة فخلت البلاد بالمرءة وملكها الشهيد ، فاقام بها ليقدر قواعدها ،
ويصلح امورها ، ويعمر ما خرب من بلدها بتوالي غارات الفرنج عليه ، ففرغ من جميع
ما اراد^٥ . واستقرت الامور في حلب لعماد الدين فرتب امورها واعاد الامن فيها
الى نصابه واقطع اعماله الاجناد والامراء^٦ . ثم انه جعل على حلب واليا تذكره
المصادر باسم ابي الحسن علي بن عبد الرزاق^٧ .

-
- ٠١ القرمانى ٢٧٩ ، ملوك الموصل ٦٩ ، منقريوس ١٩٠ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩
 - ٠٢ ملوك الموصل ٦٩ ، ابن الشحنة ١٧٥ ، ابن الغزى ٣ : ٨٨ ، ستيفنسن ١٢٥ ،
ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ٠٣ ابن القلانسي ٢٦٥ ، منقريوس ١٨٤
 - ٠٤ ابن الاثير ١٠ : ٢٤٨ ، ابن الغزى ٣ : ٨٨ ، ابو الفداء ٢ : ٢٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٤٣
 - ٠٥ ملوك الموصل ٧٠
 - ٦ : ابن الاثير ١٠ : ٢٤٨ ، القرمانى ٢٧٩ ، ابن الغزى ٣ : ٨٨ ، ابو الفداء ٢٣٩
 - ابن الوردي ٢ : ٣٤ ، الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٥
 - ٠٧ ابن الاثير ١٠ : ٢٤٨ ، الحريرى ٤٧

١١٠ فتحه لمدينة حماة وحمص ٥٢٣ هـ = ١١٢٩ م

بعد ان ملك عماد الدين زنكي ، اتابك الموصل ، مدينة حلب ، وقضه له سوادها ، سارعها جنوبا الى مدينة حماة محاولا فتحها ، وكان ذلك في ٥٢٣ هـ يقول ابن الاثير في كامله الشهير ما نصه " في سنة ٥٢٣ هـ ملك عماد الدين زنكي صاحب الموصل مدينة حماة " ^١ ، ولعلنا لنعده الحق اذا ادعينا ان جميع المصادر الموثوقة التي وقفنا عليها تتفق وابن الاثير في هذا التاريخ ^٢ .

ولنذكر الان ما هي الاسباب التي دعت اتابك لفتح هذه المدينة المتواضعة وكيفية فتحها . ان جميع المصادر متفقة على ان عماد الدين عبر الفرات الى الشام زاعما انه يريد جهاد الافرنج وارسل الى تاج الملوك بوري بن طغديكين صاحب دمشق يستنجده في ذلك ويطلب منه المعونة على جهادهم فأجابهم هذا طلبه وارسل من أخذ له العهود والمواثيق . فأطمأن قلب بوري الى ذلك وايقن ان عماد الدين سوف يتضافر واياه على جهاد الفرنج ولم يكن يفكر بان اتابك زنكي سوف ينقض عهده ، وانه قد اتخذ هذه الدعوة وسيلة للوصول الى مآربه . فأرسل بوري الى ابنه سونج حاكم مدينة حماة حينذاك يأمره بالمسير الى زنكي وضم جيوشه الى جيوش المسلمين لمحاربة الفرنج . فترزل سونج عند ارادة والده وتجهز بجيش جرار لمقابلة عماد الدين والسير معه جنبا الى جنب لمقاتلة الفرنج وسار شمالا مغادرا مدينة الآمنة حتى وصل الى مقر زنكي بين حلب وحماه . فلم يلبث زنكي ان بلغه خبر وصوله فقام لاستقباله واحاطه بشتى انواع الحفاوة والكرم واستمر على ذلك مدة ايام حتى اذا وجد عماد الدين الفرصة سانحة غدر بضيوفه وقبض على سونج ولد تاج الملوك وعلى جماعة من امراء جيشه المقدسين ، ونهب خيامهم واعتقلهم وسيرهم الى حلب ، وسار هو من يومه الى مدينة حماة فوصلها وهي خالية من الجند الحماة واهلها آمنون مطمئنون في عقر دورهم ، فملكها واستولى عليها دون ان يجد فيها ادنى مقاومة . وهكذا تم له الامر فيها ^٣ .

١٠ ابن الاثير ٢٥١ :

٢٠ ملوك الموصل ٧٠ ، ابو الفداء ٣ : ٣ ، ابن الوردي ٢ : ٣٥ ، ابن القلانسي ٢٢٨ ، ستيفنسن ١٢٥ ، الموسوعة الاسلامية ٤ : ١٢٢٥

٣٠ ابن الاثير ١٠ : ٢٥١ ، منقريوس ١٨٠-١٨١ ، ابن الوردي ٢ : ٣٥ ، كرد علي ٢ : ٥ ، ابن القلانسي ٢٢٨ ، ستيفنسن ١٢٦ ، ابو الفداء ٣ : ٣

وبعد ان خضعت حماه لعماد الدين رحل عنها جنوبا الى حمص يريد فتحها ، فحاصرها مدة وقبض على صاحبها "قرجان بن قراجة" وطلب منه ان يأمر نوابه وولده الذين فيها بتسليمها ، فأرسل اليهم بالتسليم لكنهم ابوا الا ان يدافعوا عنها ويردوا خصومهم على اعقابهم . فشدد عماد الدين عليهم الحصار وقتلهم مدة طويلة ولكن شجاعة فرسانها المحاصرين حالت دون فتحها ، حتى اذا وجد عماد الدين نفسه عاجزا عن فتحها اضطر الى ان يرحل عنها ويعود الى الموصل حاملا شرف انتصاره على مدينتي حلب وحماه وخذلان عزه عن حمص . ولعلنا نجد ما يبرر رفع عماد الدين الحصار عن حمص في حلول فصل الشتاء عليه وهو محاصر كما يذكر ذلك (ستيفنسن ١٢٦) والشتاء في حمص والبلاد الداخلية شديد الوطأة على من اعتاد العيش في العراق ، اضاف الى ذلك ان ابن الاثير و ابا الفداء يحدثاننا بأن جيوشا فرنجية اغارت على حلب مما اضطر عماد الدين حين بلغ الخبر الى رفع الحصار عن حمص والعودة الى حلب . ومهما يكن من الامر فالمصادر مجمعة على ان عماد الدين عاد عن حمص خائبا دون ان يظفر فيها بأى فتح او انتصار يذكر . وعند ما عاد الى حلب اطلق نسراج سونج بين طغلكين تاج الملوك صاحب حماه ، الذي ذكرنا امر اسره وباقي امرائه وذلك لقاء دية تبلغ الخمين الف دينار^٢ .

١٢٠ الحرب بين عماد الدين والملوك الارثقية . فتحه لحصن الاتارب ، ودارا
واخذ عماد الدين جانب السلطان سعود في حربه مع اخيه الظامع في
السلطنة . ٥٢٤ هـ = ١١٣٠ م

في سنة اربع وعشرين وخمسمائة احتتمع "ركن الدولة داود بن سقمان" صاحب الحصن كيفا وغيرها و"حسام الدين تورتاش بن ايلغازي صاحب ماردين" وهو ابن عم داود وانضم اليهما صاحب "آمد" وجمعوا من الامراء ما انتهت قدرتهم الى جمعه من التركمان ، وكان داود مطاعا عندهم ، فاجتمعوا في نحو عشرين الف مقاتل^٣ فسار اليهم عماد الدين زكي ولقيهم بالقرب من (دارا) وهي لهم فاقتتلوا

٠١ ابن الاثير ١١ : ص ٠٠٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٢

٠٢ ابن الاثير ١٠ : ٢٥١

٠٣ ابن الاثير ١٠ : ٢٥٣

قتالا شديدا ، صمد لهم عسكر زنكي ، وهو نحو اربعة آلاف فارس بشجاعتهم ، وصبر
عسكر الارتقية لكثرتهم^١ ثم انجلت الموقعة عن هزيمة الارتقية ، عندها حاصر عماد
الدين "سرجة"^٢ فملكها وانتقل الى (دارا) فملكها ايضا^٣.

ولما فرغ عماد الدين من امر الارتقية وأمن شرهم ، سار الى بلاد
الشام واعدّ العدة ووطن نفسه على الجهاد وقصد حصن الاثارب ، وهو حصن حصين
بينه وبين حلب ثلاثة فراسخ "ابن الاثير ١٠ : ٢٥٤" ، ويقول كاتب مقال الموسوعة
الاسلامية ان حصن الاثارب يقع بين حلب وانطاكية وهو للصليبيين (الموسوعة ٤ : ١٢٢٥)
وليس في الروايتين شيء من التضارب . ولعل السبب الذي حدا بزنكي الى محاصرة
هذا الحصن الصليبي الكبير ما كان يسببه هذا الحصن من الضرر الكبير على اهل
حلب^٤ ، وذلك انه كان ملجأ للجنود الفرنج ، منه يغيرون على حلب وسواها ويأتون
على ما حولها من البلاد بالسلب والسبي حتى ضجر اهل حلب وما يجاورها من
ذلك ، فكان ذلك دافعا لعماد الدين زنكي بالمسير على الحصن ومنازلته وقاتل
من فيه . يقول صاحب كتاب ملوك الموصل " وكان هذا الحصن اضر شيء على اهل
حلب ، وكانوا مع من فيه من الفرنج ما بين حرب وضرب ، وقد اجتمع فيه من فرسان
الفرنج ذوى البأس كل معروف بشدة المراس ، ان هو من اخطر ثغورهم ، وهو من
المسلمين في ثغورهم ، فتابع الشهيد قتالهم ، وادمن نزالهم ، وصب عليهم العذاب
من كل مكان ، ومع هذا فقد حفظوا حصنهم واحسنوا الذب عنهم وعنه ، ولما علم
ملك الفرنج الحال جمع الفرسان واستشارهم في الذي يصنعون ، وبأى حيلة في
دفعه عن بلادهم يدافعون ، وبعد جدال طويل ، اهتموا بجمع الفرسان والاجناد ،
واحضروا من في اطراف البلاد ، وجمعوا الداني والقاصي ، والمطيع والعاصي ،
واقبلوا في جموعهم المحشورة ، وعساكرهم المجرورة ، واعلامهم المنشورة ، وصلبانهم
وبنودهم ، وملوكهم وفرسانهم وكنودهم ، وجاءوا اليه ، والخوف قد عم رئيسهم ومروستهم
فهم منه خائفون ، يقدمون في مسيرهم رجلا ويؤخرون اخرى ، فلما تدانى الزحفان

٠١ ملوك الموصل ٧٠ ٠٢ ابن الاثير ١٠ : ٢٥٣

٠٣ ملوك الموصل ٧١ ، ابن الاثير ١٠ : ٢٥٣

٠٤ ابن الاثير ١٠ : ٢٥٢ ، ابوالفداء ٣ : ٨٩ ز لبت للوردى ٢ : ٣٥ ، كرد علي ٢ : ٦

ملوك الموصل ٧١ .

استشار الشهيد وزراءه وامراءه فأشار اكثرهم بالعود الى حلب ومطالبة الفرنج ان يتفرقوا ، فقال هذه خطة خسف تجربتهم علينا ، وتطمعهم في ما لدينا ، لكن الرأي ان نستعين بالله عليهم ونقاتلهم فاما لنا واما علينا ، فلقبهم وشبت الحرب بين الفريقين ، واشتد الطعن والضرب ، فكثرت فيهم الاسر والقتل ، فصال ملوكهم وقماصتهم وفرسانهم وقاتلوا قتال من ايسر من النجاة بالانهزام ، فامر الشهيد فيهم الاثخان ، ومنع من الاسر واعطاء الامان ، فملاحت جثث القتلى تلك الصحراء ، فلما استمر له النصر وآل به الى الظفر الصبر ، رجع الى الحصن فملكه عنوة وقهرا ، وعم كل من قيه قتلا وسبيا وأسرا ، ولقد سمعت من يحكي ان عظام القتلى لم تنزل بتلك الارض مدة طويلة ، ولما ملك الحصن اخربه ومحا اثره وازال من تلك الارض ضرره^١

وهكذا قضى البطل عماد الدين زنكي على اهم شجر من شجر الصليبيين التي كانت لا تزال تهدد حياة المسلمين اذ ذاك وكيانهم في الشرق ، واخرب الحصن المذكور و"دكه دكا" على حد قول (ابن الاثير ١٠ : ٢٥٣ ، ابوالفداء ٤ : ٣

وبعد ان تم له امر تخريب الحصن سار الى حارم وهي قضاء من افضية حلب الى الشمال منها ، وحاصر حصن حارم واستمر في التضييق عليه حتى اضطر اهله لان يسألوه الصلح ويبدلوا له المناصفة على ولاية حارم فأجابهم الى ذلك "لان عسكره قد كثر فيهم القتلى والجراحات"^٢

ولقد اتفق انه في غضون سنة ٥٢٥ هـ = ١١٣٠ م قضى السلطان (محمود بهذان) نحبه ، فأضطرب جبل الامن في بلاده على اثر ذلك وقامت المنازعات تدرّ قرنهما بين افراد اسرته كل يريد السلطنة لنفسه ويرى له الحق فيها . وذلك انه لما ملك السلطان محمود بهذان الأنف الذكر كان قد اتفق وزيره ابو القاسم النسابادي والاتابك سنقر الاحمدي على تولية ولده (داود بن محمود) بعد ابيه . وخطبوا له في جميع البلاد على ذلك . على أنه لم يلبث السلطان مسعود اخو السلطان محمود المتوفي ان سمع بوفاة اخيه حتى قام يطالب بالسلطنة لنفسه

٠١ ملوك الموصل ٧١ - ٧٦

٠٢ ملوك الموصل ٧٦

واستولى على بعض ممالك اخيه ثم اراد المسير الى بغداد ولكن سبقه اليها اخوه (سلجوق شاه) ونزل بدار السلطنة، فلم يجد السلطان مسعود بدا من استمالة عماد الدين زنكي فارسل اليه يستنجده، فأجابه زنكي الى ما طلب منه ووعده النصر فقويت بذلك نفس مسعود على طلب السلطنة^١ وسار عن الموصل يريد بغداد ومّر بتكريت ليجتمع بالسلطان مسعود الذي قد نزل "بعباسية الخالص" قرب بغداد . فلما سمع سلجوق شاه بوصول عماد الدين تكريت ارسل عسكره بقيادة "قراجه" فوصل هذا تكريت وحدثت بينه وبين عماد الدين موقعة انتهت باندحار زنكي وجيوشه واسر عدد كبير من اتباعه مما اضطره للرجوع الى الموصل حيث حاول جمع فلول جيشه ليعيد الكرة الى بغداد . ولكن في هذه الاثناء حدث ان جرت مناوشات بين مسعود واخيه سلجوق شاه انتهت بتراجع السلطان مسعود بسبب ما كان لاندحار زنكي من الوقع السيئ في نفس مسعود واتباعه وضعف معنويات جيشه . على انه لم يلبث مسعود ان يعود ادراجه منهزما حتى ظهرت في ميدان القتال جيوش السلطان "سنجر" الجرارة قادمة من خراسان ومعه الملك "طغرل بن السلطان محمد" ليرتبه في السلطنة، فلم يجد الخليفة المسترشد بالله بدا من ان يطلب الى السلطان مسعود واخيه سلجوق شاه ان يضعوا اوزار الحرب بينهما ويتفقا على قتال عمهما السلطان سنجر^٢ ولكن يظهر ان السلطان سنجر كان قد اوعز من طرفه الى عماد الدين زنكي والى ديبس بن صدقة بالمسير الى العراق والاستيلاء عليه^٣، لذلك ما لبث زنكي ان وصل الموصل وجمع فلول جيشه حتى عاد الى بغداد يسمح عنه أثر الهزيمة المنكرة التي حلت به وبجيشه منذ حين . واتفق انه في هذا الوقت نفسه كان قد وصل بغداد ايظ من الهلة ديبس بن صدقة المذكور والتقيا جميعا في بغداد . فلما بلغ ذلك سامع الخليفة المسترشد بالله وكان حينذاك (بخانقين) عاد منها مسرعا مع السلطان مسعود ليُرد زنكي وديبس عن بغداد، فجرت بين الفريقين معارك حاسمة انتهت بهزيمة ديبس اولا واندحار زنكي وعودته الى الموصل^٤.

٠١ ابن الاثير ١٠ : ٢٥٧ ٠٢ ملوك الموصل (٧٦ - ٧٩

٠٣ ابن الاثير ١٠ : ٢٥٩ ٠٤ ملوك الموصل ٨٣

وقد يجدر بنا ونحن ندرس زنكي ان نأتي على ذكر خبره مع (دييس بن صدقة) لما كان بين هذا وذاك من عظيم الصلة . فلقد كان ديبس هذا ينحدر من سلالة عربية ، وكانت اليه ولاية الحلة^١ . وكان على ما تقوله بعض المصادر رجلا شريفا حاول اكثر من مرة الايقاع بعماد الدين زنكي والغدر به . يقول ابن الاثير في ملوك الموصل ما نصه " وكان ديبس شريفا ومن أشد الناس عداوة للشهيد عماد الدين واكثرهم وقية فيه"^٢ ولقد حدث أن امير (صرخد) وهو حصن حصون الشام قد توفي وخلف زوجة ، فأشار اليها بعض اصحابها ان تتصل باحد الامراء الاكابر صلة تزواج لعجل هذا الامير يساعدها على بسط نفوذها على هذا الحصن . فلم تجد اميرا هو اجدر بهذا المقام من ديبس بن صدقة ، فارسلت اليه تستقدمه ، فسار هذا الى الشام ولكنه ضل طريقه ، فخرج اليه قوم من بني كلب^٣ واسروه وسلموه الى تاج الملوك بن طنكين صاحب دمشق . فلما ان بلغ ذلك مسامع عماد الدين حتى ارسل الى صاحب الشام يطلب اليه تسليم صاحبه ديبس ، وبذل له في ذلك الاموال . فأبى تاج الملوك ان ينزل عند ارادة زنكي فاصر عليه زنكي بتسليم ديبس والا قصد بلاده واتى عليها بالسلب والنهب . فوجد تاج الملوك نفسه مضطرا الى تلبية طلب عماد الدين على ذلك يسترسل ابن الاثير في كتابه ملوك الموصل ص ٨٤ ، زاعما أن تسليم تاج الملوك لدييس كان على اثر تهديد زنكي له . على ان يقية المصادر كأبي الفداء وابن خلدون وابن الوردي وغيرهم تدعي ان تاج الملوك لم يرخر بتسليم ديبس الا على اساس ان يسلم زنكي سونج لابية تاج الملوك مقابل تسليمه ديبسا . فسلم زنكي سونج الى ابيه وتسلم هو بدوره مقابل ذلك ديبس بن صدقة^٤ . فلما صار عنده جازى اساءته باحسان وانعم عليه واعطاه المال والخيام والخيول وكلما يحتاج اليه الملوك وبالغ في اكرامه .^٥ على انه يظهر ان خبر اسر ديبس بلغ مسامع المسترشد بالله ، فامتعض لذلك وارسل مع سديد الدولة بن الانباري صاحب ديوان الانشاء ببغداد الى تاج الملوك يطلب

١ ابن الاثير ١٠: ٢٥٤ . ٢ ملوك الموصل ٨٣

٣ ابن الاثير ١٠: ٢٥٥ . ٤ ابن الاثير ١٠: ٢٥٥

٥ ملوك الموصل ٨٤ ، ابن خلدون ٤: ٢٨٩ ، ابن الوردي ٢: ٣٧

منه تسليم ديبس ولم يكن للخليفة ان ذاك علم بان عماد الدين كان قد سبقه في ذلك . فلما وصل الرسول دمشق وعلم بمصير ديبس اشنع القول في عماد الدين وذكره بما يكرهه فاتصل ذلك بعماد الدين فامتعض وامر جنده بحمل الانباري ، فحمل اليه فحبسه بالموصل ولكن الخليفة توسط لدى زنكي باطلاق سراحه فاطلقه واحسن اليه كما ذكر ذلك صاحب ملوك الموصل (٨٤) .

١٣٠ الحرب بين الخليفة المسترشد بالله وعماد الدين زنكي

ثم انه في ربيع الاول من عام ٥٢٧ هـ = ١١٣٢ م سار الخليفة المسترشد بالله من بغداد الى الرملة حيث نظم جيشا كبيرا وكان قد قصد عدة امراء من الحساكر السلطانية ، فقوى المسترشد بذلك واستبد بالعراق ردحا من الزمن وجبى الاموال وارسل الامام ابا الفتح الاسفرايني الواعظ الى عماد الدين قي قصد لم تأت الرواة على ذكره ، وانما هي تذكر ان الواعظ المذكور عندما قابل عماد الدين اهانه واغلظ له في القول فلم يكن من عماد الدين الا ان قابله بالمثل وبالغ في اهانته . فتارت بذلك حفيظة الامام ابي الفتح وطاد الى بغداد ونفسه تجيش غضبا وقص ما جرى له الى الخليفة فغضب الخليفة لذلك وسار الى الموصل في (٣٠ الف) يريد مقاتلة عماد الدين زنكي . فما ان بلغ هذا خبر سير الخليفة اليه ، حتى تاهب للرحيل عن الموصل في جمع من عساكره بعد ان اناج عنه فيها نصير الدين جقرا ، وتابع سيره حتى وصل منطقة سنجار وكان في هذه الاثناء قدم المسترشد بالله على الموصل بجيشه الجرار ، فحاصر المدينة ولكن لم يستطع ان يظفر بها وذلك لان نصير الدين جقرا كان قد حصن المدينة واحسن حفظها وقام فيها المقام الموضي . اذف الى ذلك ان عماد الدين زنكي كان من ناحيته يرسل سرايا تقاتل جيش الخليفة وتقطع الميرة عنهم من كل صوب ، فعزت الاقوات عنهم وقتل الكثير منهم ولكنهم ثابروا على حصارهم عسى ان تكون الغلبة في النهاية في جانبهم ، واستمروا في الحصار مدة لا تقل عن الثلاثة

اشهر، كانت النتيجة فيها ان خابت مساعيهم ولم يظفروا بالمدينة فغادروها عائدين الى بغداد . ويذكر صاحب ملوك الموصل خبر بعض مراسلات صلحية ناجحة جرت بين الخليفة وبين عماد الدين انتهت بعقد الصلح بينهما ، فيقول * وارسل اتابك الشهيد فصالحه وسير اليه الشهيد الخدم والهدايا .^١

٠١٤ ملكه لقلع الاكراد الحميدية ٥٢٨ هـ = ١١٢٣ م

انتهت سنة ٥٢٧ هـ = ١١٢٢ م بذلك الصلح الذي قام بين الشهيد وبين الخليفة المسترشد بالله ، وعاد كل من الفريقين الى بلده فاستقر الخليفة في بغداد ودخل عماد الدين الموصل يسوى فيها ما افسده الحصار ويقر الامور فيها ، فلم تنته السنة هذه وتبدأ ظلائع السنة الجديدة حتى كانت قد استقرت الامور في الموصل على غايتها وعادت المياة الى مجاريها ، فلقي عماد الدين بذلك فيضا من قوته وفراغا من وقته ليقوم ببعض الفتوح . فالتفت حوله فلم يجد سوى القلاع الحميدية المتشرة في جوانب منطقته ، فأراد الاغارة عليها ليأمن شرها وشر اهليها . وكان ذلك عام ٥٢٨ هـ = ١١٢٣ م^٢ باجماع الروايات سوى رواية واحدة انفرد بها صاحب الروضتين تجعل تاريخ الاستيلاء في عام ٥٢٩ هـ (الروضتين ٣١) ونحن لا يمكننا في هذه المناسبة الا ان نسير على المنهاج الذي اتبعناه آنفا في مثل هذه القضايا متبعين في ذلك قواعد مصطلح التاريخ فنرد رواية الروضتين لاجماع بقية الروايات الاولية والثانوية على نقضها ، وخصوصا ابن الاثير في كتابيه (ملوك الموصل ، والكامل) سار عماد الدين زنكي في غضون سنة ٥٢٨ هـ = ١١٢٣ م الى القلاع الحميدية وحاصرها مدة طويلة وقاتل اهليها قتالا شديدا حتى اخضعها فملك (قلعة العقر)^٣ ثم سار منها الى (قلعة الشوش)^٤ فملكها ايضا^٥ . وكما انفرد صاحب الروضتين في روايته عن تاريخ استيلاء عماد الدين على القلاع الحميدية كذلك ينفرد في ذكر استيلاء عماد الدين على (قلعة الشعباني) التي هي من اعظم قلاعهم^٦ . ويضيف ابن الوردي الى ذلك قلاع الهكارية وكواشي^٧.

٠١ ملوك الموصل ٨٦ ٠٢ ابن الاثير ١١: ٥ ، ملوك الموصل
٠٣ ابن الاثير ١١: ٥ ٠٤ ابن الاثير ١١: ٥ ٠٥ ابن الاثير ١١: ٥ ، ملوك الموصل
٠٦ الروضتين ٣٦ ٠٧ ابن الوردي ٢: ٣٩

وقد اتفقت الرواة على ان سبب استيلاء عماد الدين على القلاع الحميدية هو غضبه من بعض الامراء القائمين عليها ، والذين ساعدوا الخليفة المسترشد بالله في حصار الموصل وقاتل عماد الدين زنكي ، فأغار عماد الدين عليهم وازال سلطتهم نهائيا . ويقول صاحب ملوك الموصل "وسبب قصدها انه لما ملك الموصل واعمالها اقر الامير عيسى الحميدى على ولايته ولم يتعرض في شيء مما بيده ، فلما حصر المسترشد بالله الموصل حضر الامير عيسى عنده في جنده وجموعه وامده بالاقوات وغيرها مما يحتاج اليه ، فلما عاد المسترشد بالله عن الموصل امر الشهيد بحصر قلاع الحميدية فحوصرت مدة طويلة وقوتلت قتالا شديدا الى ان فتحت في هذه السنة واطمان اهل سواد الموصل المجاورين ."^١ ولا تختلف بقية الروايات عن مضمون هذه الرواية السالفة فالجميع يرون ان السبب الرئيسي لاستيلاء عماد الدين على القلاع الحميدية هو ان الامير عيسى الحميدى الذى كان قد اقره عماد الدين على هذه القلاع ، واسبغ عليه ضروب الانعام ، كفر بنعمة عماد الدين وقام يساعد الخليفة المسترشد بالله في حربه وحصاره الموصل ويرسل له الجموع والاقوات مما اغاظ عماد الدين واثار حفيظته عليه ، فقام بما ذكرناه من حصار الحصون وقاتل ولانها واصحابها .

ونحن لا يمكننا الا ان نقر ما تذكره المصادر في هذا الصدد الا اننا نرى انه الى جانب هذا السبب الظاهري لاستيلاء عماد الدين على القلاع الحميدية ، كان هناك سبب باطني لعله اعرق وابلغ في نظرنا من حجة الرواة . وذلك ان عماد الدين ذلك البطل الناشيء كان يرى ان سيطرته ونفوذه لا يمكن ان يستقرا الا اذا استولى على ما حوله من مراكز القوة والهجوم وامن شر الغزوات وكان عماد الدين يجد من وقته متسعا ومن قوته فيضا لمثل هذا الاستيلاء ، فاقدم عليه ، واعتذر عن فعلته بان اصحاب هذه القلاع قاتلوه ، وناصروا عدوه الخليفة عليه فاستحقوا العقاب الصارم ، وما اكثر ما يفعل الاقوياء بالضعفاء ، كما فعل عماد الدين زنكي باصحاب القلاع ، وهم يحتجون بحجج واهية ما انزل الله بها من سلطان .

١ . ملوك الموصل ، ٨٦ ، ابن الاثير ١١ : ٥

١٥٠ زنكي يحاصر آمد ويملك قلعة الصور

ولم يكتف عماد الدين بالقلاع التي استولى عليها حتى الان ، بل قد سار في غضون السنة المذكورة^١ الى (آمد) وكان مسيره الى هذه القلعة بصحبة تمرتاش صاحب ماردين^٢ ، فلما بلغ ذلك اسماع صاحب الحصن ارسل الى داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يستنجده^٣ ، فجمع هذا عساكره وسار يريد الحصن فالتقى بجيش زنكي وتمرتاش واقتتل الفريقان ردحا من الزمن حتى انهزم داود سقمان وعاد مكسورا وقد قتل جمع كبير من عسكره^٤ . فاقام زنكي وتمرتاش على آمد محاصرين لها وقطعا الشجر^٥ ، ولكن يظهر ان مناعة الحصن حالت دون الاستيلاء عليه ، فاضطر عماد الدين على الرجوع صفر اليدين من غير ان يبلغ غرضه ، وفيما هو راجع اغار على قلعة الصور من ديار بكر^٦ وحصرها وضايقها حتى ادعت لقوته فملكها في رجب من هذه السنة على ما يذكره صاحب الكامل (ابن الاثير ١١: ٥) ، وما يذكره ابن القلانسي (٢٤٣) . ويذكر ابن القلانسي ان الشهيد بعد ان ملك حصن الصور سلمه الى "حسام الدين تمرتاش"^٧ .

١٦٠ زنكي والخلاف بين الخليفة المسترشد بالله والسلطان مسعود ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م

تم لزنكي امر الاستيلاء على القلاع الحميدية ، والسيطرة على قسم كبير من سورية واصبح له الامر والنهي فيما آل اليه من البلاد . ومضت الايام وخطر زنكي لا يزال آخذ بالتفاقم ونفوذه آخذاً بالاتساع ، ولم يكن زنكي ليمر على هذه السنة دون ان يترك فيها اثرا بارزا تردده المصادر ، ذلك اشتراكه في الخلاف الذي قام في غضون هذه السنة بين السلطان مسعود والخليفة المسترشد بالله . وكان مسعود هذا سنة ٥٢٨ هـ = ١١٣٣ م ببغداد وقد ضعف امره وقوى امر اخيه الملك طغرل وملك سائر بلاد الجبل^٨ ، فراسل السلطان مسعود المسترشد بالله

- ٠١ ابن الاثير ١١: ٥ ملوك الموصل ٨٦ ، ابن القلانسي ٢٤٣
٠٢ ابن الاثير ١١: ٥ ، ابن القلانسي ٢٤٣ ٠٣ ابن الاثير ١١: ٥ ، الروضتين ٣١
٠٤ ابن الاثير ١١: ٥ ، ابن القلانسي ٢٤٣ ٠٥ ابن الاثير ١١: ٥ ، ابن القلانسي ٢٤٣
٠٦ ابن الاثير ١١: ٥ ٠٧ ابن القلانسي ٢٤٣
٠٨ ملوك الموصل ٨٧

يستميله ويطلب منه المساعدة على اخيه طغرل فاجيب الى ذلك^١، وامده الخليفة بالاموال والرجال، وكان في الوقت نفسه السلطان سنجر يمد طغرل بالمساعدة . لقد تأخر السلطان مسعود بالمسير فارسل المسترشد بالله يأمره بالاسراع في الرحيل ودفن اخيه عن البلاد، ولكن السلطان مسعود لم يحرك ساكنا . فاغتاظ الخليفة وارسل اليه الخبر تلو الخبر يستثيره على المسير الى اخيه، حتى اضطر اخيرا الى ان يجمع الجموع ويجنّد الجنود استعدادا للرحيل . فيما هو كذلك جاءه خبر وفاة اخيه طغرل في المحرم من سنة ٥٢٩ هـ، فرحل الى همدان مسرعا، فاجتمعت العساكر لملاقاته فهزمهم، فولوا مدبرين نحو بغداد، فوصلوها واخبر الخليفة المسترشد بالله بسوء قصد السلطان مسعود وحشوه على حربه واعدين بالمساعدة . اقتنع الخليفة اخيرا الى ان يجمع الجموع ليسير الى قتال مسعود اعتمادا على مساعدة الكثيرين من اصحاب الاطراف . سار الخليفة عن بغداد يريد لقاء السلطان مسعود وقد اناب عنه فيها جمال الدولة^٢ اقبال في ٣ آلاف فارس .

ولم يأل الخليفة جهدا في استمالة اصحاب الاطراف، ولكن مسعود حاول استجلابهم اليه فنجح في ذلك ولحق به اكثرهم حتى بلغ جيشه خمسة عشر الفا بعد ان كان ٣ الاف (ملوك الموصل ٨٧) ومما زاد في قوته وخطره ان انضم اليه عماد الدين زنكي وارسل اليه نجدة . فاتحم الجيشان واكثر القتل والاسر في عسكر الخليفة ثم القي القبض على الخليفة نفسه وعلى بعض وزرائه وحاشيته وادعوا السجن^٤ . ثم ان السلطان مسعود ارسل من قبله رسولا تدعوه المصادر "بك ابيه" الى بغداد فدخلها وقبض على جميع املاك الخليفة وبذلك ثارت الفتنة في بغداد^٥ وتذكر المصادر ان نفرا من الباطنية لا يتجاوزون الاربعة والعشرين هجموا على الخليفة وقتلوه وبايعوا بالخلافة بعده الامير ابا جعفر المنصور بن المسترشد بالله في يوم الاثنين السادس والعشرين من ذي القعدة ٥٢٩ هـ = ١١٣٥ م^٦

٠٢ ملوك الموصل ٨٧، ابن الاثير ١١ : ٨

٠٤ ملوك الموصل ٩٠

٠١ ابن الاثير ١١ : ٢

٠٣ ملوك الموصل، ٨٧

٠٥ ملوك الموصل ٩٠

٠٦ ملوك الموصل ٩١

١٧٠ زكي يحاصر دمشق ٥٢٩ هـ = ١١٣٥ م

عمّت الفتن البلاد واضطرب جبل الامن فيها ، وثارت بغداد محتجة على اعمال السلطان مسعود وقيامه بالثورات على الخليفة ومحاولته نزع السلطة منه . في هذه الاثناء وقبل مقتل الخليفة المسترشد ، قام بعض الظالمين يلعبون دورهم ويسعون لتحقيق غاياتهم . وانها لعمري فرصة سانحة لمن يريد ان يصيب هدفه ومن احق من زكي ان يقوم ويغتنم فرصة هذه الاضطرابات ليكمل فتوحاته ويثبت قدمه . وفي الواقع قام زكي في اول جمادى الاولى من سنة ٥٢٩ هـ نفسها^١ وسار جنوبا نحو دمشق يريد محاصرتها ، وكان الخليفة ان ذاك مشتبكا والسلطان مسعود في الفتن . ودمشق كما يعلم الجميع ذات موقع له اهميته من الناحيتين الحربية والتجارية (باركر ٣٥) وارسل الرسل الى صاحب مدينة دمشق شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك بورى بن طغلكين^٢ يطلب اليه ان يتنازل عن ولايته ويسلمه مدينة دمشق ، فوصلت الرسل الى المدينة لتقرير قواعد السلم ، ولكن لم يلبثوا ان علموا بمقتل شمس الملوك حتى عادوا الى زكي مكرمين محترمين واخبروه الخبر بمقتل صاحب دمشق شمس الملوك^٣ بمؤامرة دبرتها والدته صفوة الملك خاتون^٤ (ابن القلانسي ٢٤٦) وسبب قتله انه ركب طريقا من الظلم ومصادرات العمال وغيرهم وبالغ في العقوبات لاستخراج الاموال^٥ ، كما اخبروه ايضا بان الشعب متفق على طاعة شهاب الدين والامر مستقر له^٦ . ولكن عماد الدين زكي لم يحفل بكل هذا بل سار الى الشام حتى وصل ظاهر دمشق وخيم بارض عذراء الى ارض القصير في عسكر كثيف الجمع (ابن القلانسي ٢٤٦) وحاصر المدينة فقررها لها صده عنها ومحاربتها (ابن القلانسي ٢٤٧) وصمدوا في الدفاع عنها ، وكان الوزير معين الدين انر قد تولى امر تنظيم الدفاع ، مما اضطر زكي ان ينتقل من محله الاول الى ميدان الحصى^٧ واخذ يقاتل جندها فرأى قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة واتفاقا تاما

١٠١ ابوالفداء ٩:٣ ، ابن القلانسي ٢٤٥ ٠٢ ابن الاثير ٨:١١ ابن القلانسي ٢٤٥
٠٣ ابن الاثير ٨:١١ ٠٤ ابن الاثير ٨:١١ ٠٥ ابن الاثير ٨:١١
٠٦ ابن الاثير ٨:١١
٠٧ ابن الاثير ٩:١١

على محاربتة وارجاعه عنها^١، ثم انه في هذه الاثناء اقبل اليه الرئيس بشر بن كريم بن بشر الجزري^٢ من قبل المسترشد بالله بخلع اعدت اليه وبلغه امر الخليفة بصلح صاحب دمشق الملك محمود، فنزل اتابك عند امر الخليفة ورحل عن الشام لليلتين مضيّن من جمادى الاولى سنة ٥٢٩ هـ = ١١٣٤ م^٣.

١٨٠ الحرب بين الخليفة والسلطان مسعود والتجاء الخليفة الى الموصل

سنة ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م

وهكذا انقضت سنة ٥٢٩ هـ دون ان يحدث زنكي فيها فتحا ذا اثر بارز يذكر . وتلتها سنة ٥٣٠ هـ . ولعل اشهر ما ترويه المصادر عن اخبار هذه السنة سير الخليفة الراشد بالله الى الموصل مع اتابك زنكي ، وسبب التجاء الخليفة الى الموصل ان تألب العسكر على السلطان مسعود واجمعوا على قتاله وتولية سلطان آخر يرتضونه ، وقرروا الاجتماع في بغداد للمداولة في هذا الامر ، فسار الامراء من جميع الجهات الى بغداد للاشتراك بهذا الاجتماع ، فكان فيمن سار اليها من الموصل الاتابك عماد الدين زنكي ، وحضر هذا الاجتماع الحام الخليفة نفسه الراشد بالله ، ويظهر ان الامراء اثروا عليه واقنعوه بوجوب الخروج معهم عن بغداد لمحاربة السلطان مسعود ، فأجابهم الى ذلك واجتمعوا على هذا العزم في صيف سنة ٥٣٠ هـ . ولكن ظهر للخليفة تلون من بعض اصحابه ، فالقى القبض على جماعة منهم وبينهم وزيره جلال الدين ابو الرضى محمد بن احمد بن صدقة^٤ وجمال الدولة اقبال المسترشدى^٥ ، وسار وموكبه الى اتابك الشهيد ونزل في خيمته^٦ . وتذكر المصادر ان زنكي اخذ يتشفع لدى الخليفة على هؤلاء الذين القي القبض عليهم ، فاطلق الخليفة الراشد بالله سراحهم وسلم اقبال المسترشدى الى الشهيد^٧ لانه اظهر من العناية بامره اكثر من غيره ، فاكرمه زنكي واحسن اليه . على انه في هذه الاثناء ورد الخبر بان الملك سلجوق شاه بن السلطان محمد

١٠١٠ ابن الاثير ٩ : ١١ ٠٢ ابن الاثير ٩ : ١١ ، ابن القلانسي ٢٤٨

٠٣ ابن القلانسي ٢٤٨ ، ابن الاثير ٩ : ١١ ، ابو الفداء ٩ : ٣

٠٤ ابن الاثير ١٥ : ١١ ٠٥ ابن الاثير ١٥ : ١١

٠٦ ابن الاثير ١٥ : ١١ ٠٧ ابن الاثير ١٥ : ١١

قد وصل الى واسط في جمادى الاولى في عسكر كثير فانحدر الاتابك اليه ليحاربه .
ويظهر ان خلافا وقع بين سلجوق شاه و اتابكه البقتر فاستغل اتابك زنكي هذا
الخلاف واستمال اليه البقتر وفارقوا سلجوق شاه وطاد عماد الدين ومن معه الى
بغداد . فتبعه اليها السلطان مسعود^١ ، عندها خرج الخليفة الراشد بالله من
دار الخلافة ونزل على عماد الدين ملتجأ وسار معه الى الموصل تاركا بغداد^٢
فدخلها السلطان مسعود واستقر له الامر فيها في ذي القعدة من السنة المذكورة
وعزم على خلع الخليفة الراشد واخذ البيعة لغيره فوافقه على ذلك الامراء و ارباب
المناصب في بغداد ، فاحضر القضاة والشهود والفقهاء وقرروا خلعهم من الخلافة
واخذ البيعة الى ابي عبد الله . فلما وصل الخبر الى الراشد بالله الخليفة
السابق والى عماد الدين زنكي ، ارسل كل منهما رسولا الى السلطان ، فاعرض هذا
عن رسول الخليفة واقبل على رسول عماد الدين وهو كمال الدين ابو الفضل محمد
بن عبد الله الشهرزوري فآكرمه ، واقطع الخليفة الجديد زنكي صريخين ودرب هرون
وزاد في القابله ونال زنكي في ذلك ما لم ينله غيره من امراء الاطراف^٣ . اما
الخليفة الراشد بالله ، الخليفة المخلوع ، فقد خرج الى اذربيجان بناء على طلب
السلطان سنجر فتصدى له جماعة من الباطنية^٤ ، وقتلوه في السابع والعشرين من
رمضان سنة ٥٣٢ هـ^٥ .

١٩ . غزو العسكر الاتابكي بلاد الفرنج ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م - ١١٣٦ م

وقبل ان نظوى صفحة على اخبار عام ٥٣٠ هـ لا بد لنا من ان نأتي
على ذكر ما قام به عسكر الاتابك عماد الدين زنكي من غزو بلاد الفرنج . فان
المصادر تذكر انه في غضون سنة ٥٣٠ هـ^٦ سارت عساكر عماد الدين من حلب وحماه
يريدون غزو الفرنج وكان على رأسهم اسوار نائب زنكي في مدينة حلب^٧ ، قادهم اسوار

١ . ابن الاثير ١١ : ١٥ ، سنقر يوس ١٨٢ . ٢ . ملوك الموصل ٩١ ، المقريزي ١ : ١ : ٣٧

٣ . ملوك الموصل ٩١ . ٤ . الروضتين ٣١ ، ابو الفداء ٣ : ١٤

٥ . الروضتين ٣١ ، ابو الفداء ٣ : ١٤ ، المقريزي ١ : ١ : ٣٧

٦ . ابن الاثير ١١ : ١٦ ، ابن الوردي ٢ : ٤٠

٧ . ابن الاثير ١١ : ١٦ ، ابن الوردي ٢ : ٤٠

حتى وصلوا نواحي مدينة اللاذقية^١، فهاجموا الفرنج ووقعوا بهم حتى اذا ظفروا بهم نهبواهم وقتلواهم واسروهم "فعلوا ما لم يفعله غيرهم"^٢. وقد يبلغ عدد الاسرى الذين اسروهم في وقعة اللاذقية هذه سبعة الاف اسير ما بين رجل وامرأة وصبي^٣. ويتابع ابن الاثير روايته في ذلك فيقول "وتم عسكر الاتابك مائة الف رأس من الدواب وما سوى ذلك من الاقمشة والحلى"^٤. وقد خربوا اللاذقية عندما ارادوا العودة لبلادهم كي لا يكون للاعداء فيها ملجأ^٥.

٢٠٠ حصار زنكي مدينة حمص ٥٣١ هـ = ١١٣٦ م

لقد اتينا فيما مضى على حصار زنكي لهذه المدينة عام ٥٢٣ هـ = ١١٢٩ م ولا بد لنا الان ان نعيد البحث في حصار زنكي لهذه المدينة للمرة الثانية وذلك في منتصف سنة ٥٣١ هـ = ١١٣٦ م وقد ذكر ابن الاثير في كامله هذه الرواية باسهاب، ونحن نكتفي هنا بالاشارة اليها مع بعض التفصيل.

لما كان شهر شعبان عام ٥٣١ هـ جيش زنكي جيشه وتأهب للرحيل الى حمص^٦. وقبل سيره اليها ارسل كمقدمة لحملته حاجبه صلاح الدين محمد الياغسياني^٧ في مهمة خاصة يرمي من ورائها ان يدبر امر استلام المدينة عن طريق التسليم والصلح، وكان صلاح الدين هذا ممن لا تعوزهم الحيلة والحنكة السياسية، وقد وصفه ابن الاثير في كتابه الكامل بقوله "وكان ذا مكر وحيل"^٨. وصل هذا الرسول مدينة حمص واتصل فيها بأمرها (معين الدين انر) من اكابر امراء دمشق وحمص على السواء، ولكن يظهر ان سياسته قد فشلت وذلك انه اخفق في مهمته فسارت حينئذ جيوش زنكي تريد الاستيلاء على حمص قهرا وضرب البطل المغوار حصاره على المدينة، ولكنه لم يلبث حتى شعر بقوة المدينة فأراد ان ينفذ آخر سهم في كنانته فارسل رسله ثانية الى معين الدين انر يفاوضونه في امر تسليمها وتهددته

٠١ ابن الاثير ١٦: ١١، ابن الوردي ٤٠: ٢ ٠٢ ابن الاثير ١٦: ١١
٠٣ ابن الاثير ١٦: ١١ ٠٤ ابن الاثير ١٦: ١١ ٠٥ ابن الاثير ١٦: ١١
٠٦ ابن القلانسي ٢٥٨ ٠٧ ابن الاثير ٢١: ١١
٠٨ ابن الاثير ٢١: ١١

بالوعد والوعيد ، ولكن انراى الا ان يقف من المهاجمين موقف المدافع واحتج في ذلك " بانها ملك صاحبه شهاب الدين وانها بيده امانة ولا يسلمها الا عن غلبة" ^{١٠} . وصد فعلا ضد غارات عماد الدين وهجماته حتى اعيأ امره الجيش المحاصر، فحدثت عماد الدين نفسه بالرحيل لا سيما وان الاخبار بلغته بان الافرنج قد ساروا لنجدة حمص ، فازمع زنكي تجاه ذلك على الرحيل لمقاتلة هؤلاء الفرنج واضطر لرفع الحصار عن حمص ردحا من الزمن دون ان يبلغ ظهره منها ، وسار في شوال سنة ٥٣١ هـ يريد منازلة الفرنج في حصن بعين ^٢ .

٢١ . ملك زنكي قلعة بعين ٥٣١ هـ = ١١٣٧ م

ولئن شاءت الاقدار ان تخيب امل زنكي في حمص فلم تشأ ان تعاكسه في بعين ، بل كان التوفيق حليفه في حملته هذه وقد زاده فتح هذا الحصن من الشهرة فوق ما كان له ، فطار صيته في الامصار وطبق اسمه الافاق . سار زنكي في شوال من عام ٥٣١ هـ يريد منازلة الفرنج في حصن بعين الذى هو على ما تذكره المصادر من امنع حصون الفرنج القريبة من مدينتي حلب وحمص ^٤ والمصادر متفقة على ان استيلاء عماد الدين زنكي على حصن بعين كان في غضون عام ٥٣١ هـ = ١١٣٧ م ^٥ .

سار زنكي كما اسلفنا يريد مقاتلة الفرنج وكانوا على امية المسير الى حمص للنجدة . فتلاقى الفريقان بالقرب من حصن بارين المسمى اليوم ببعين (ملوك الموصل ١٠٥) ، وكان الفرنج قد جاءوا فرسانا ومشاة لصد غارات المسلمين ^٦ . ولما رأى زنكي قوة اعدائه شعر بخطورة الموقف وجمع عساكره واخذ يحثهم على الجهاد ويحرضهم على قتال الكفرة الاوغاد ^٧ ونظمهم ورتبهم ثم امرهم بالهجوم ، فهجموا بشدة وعنف واعلموا السيف في رقاب الاعداء " ولم يزل هذا دأبهم حتى حمي الوطيس

١٠ ابن الاثير ١١: ٢١ ، ابن القلانسي ٢٥٨
٢ ابن الاثير ١١: ٢١ ، ابن الاثير ١١: ٢١ ، ابن القلانسي ٢٥٩ ، ستيفنسن ٢٥٩
٣ ابن الاثير ١١: ٢١ ، ابو الفداء ٣: ١٢ ، ابن الغزى ٨٩
٤ الحريرى ٥٤ ، منقربوس ١٨٣ ، ابن القلانسي ٢٥٩ ، كرد علي ٢: ١٠ ، باركر ٣٥
٥ ستيفنسن ١٣٧ ، الموسوعة ٤: ١٢٢٥ ، ابن الاثير ١١: ٢١ ، ملوك الموصل ١٠٥ ، ابو الفداء ٣: ١٢
٦ ملوك الموصل ٩١

فحينئذ حملت الفرنج حملة اختلط فيها العرؤوس والرئيس، وارتفع القتام، واشتد اللزام، وعظم الزحام و صبر الفريقان صبورا لم يسمع بمثله في سالف الدهور، الاما يحكى عن ليلة الحرير^١ ولم يدم الامر طويلا حتى تسرب الضعف والوهن الى قلوب الفرنج فلم يروا بدا من الحرب ففرّوا مسرعين والمسلمون يطاردونهم بالرمح والنبال، فالتجأوا الى حصن بعين لعله ينجيهم من قسوة الاعداء، ودخلوا الحصن الوفا واحتموا به وظل زكي يطاردهم حتى حصن بعين وحاصره وحاول اقتحامه، ويظهر ان هذا الحصن كان من امنع الحصون واحصنها، وصفه جميع المؤرخين بالمناعة، وقد اجاد صاحب كتاب ملوك الموصل في وصف هذا الحصن وترك لخياله العنان فانطلق عن لسانه في ذلك شعر منشور . يقول ابن الاثير في كتابه ملوك الموصل بعد ان يصف حصار عماد الدين زكي لحصن بعين^٢ فحين نازله طاف به وقابله، فرأى حصنا محلقا في السماء، مقارنا هامة الجوزاء، قد فاق الجبال الراسيات وجازها سموا، وقد تشمخ بانفه عن ان يرام، ونأى بجانبه عن ان يظام، فلا ترمقه الابصار الا عادت حيرة، ولا تؤمّه الطيور الا اضحت اجنحتها مهيضة كسيرة، ومن به من ملوك الفرنج وفرسانهم، وكيولهم وشيانهم، واثقين بحضانته، متيقنين ان الحوادث لا تنالهم وهم به محتصمون، وان الايام لا تنفذ سهامها فيهم وهم فيه يقمون، وانى يكون ذلك وقد احدثت بهم الاسد في عرينها، الذابة عن دين الله تعالى ودينها^٣.

استمر عماد الدين زكي ورجاله في حصار الحصن يمطرون من فيه بوابل من السهام، وحجار المنجنيق، حتى ادخل في قلوبهم الرهبة والذعر ولم يجدوا الى التخلص من نار الاعداء سبيلا الا بالاستسلام وطلب الامان حقنا لدمائهم وراسلوا زكي في ذلك ولكنه ابى الا ان يستمر في قتالهم الى النهاية وان يدخل الحصن قرا^٤ وطمرا . وفيما هو يتابع قتاله اذ بلغه ان بعض الذين نجوا من القتال قد ابحروا الى بلاد الفرنج يستجدونهم، فكان ذلك حافزا له على تشديده في امر الحصار وتضييقه على ساكنيه وهم لا يزالون يرسلون اليه الرسول تلو الرسول يسترحمون ايقاف القتال ويعدون بالاستسلام، فأجابهم اخيرا الى ذلك وتسلم الحصن و (٥٠ الف دينار) بعد ما اعطى الناس الامان^٥.

١٠٧ ملوك الموصل ١٠٧ ٠٢ ملوك الموصل ١٠٦ - ١١٠
٠٣ ابن القلانسي ٢٥٩ ، ابن الاثير ١١ : ٢١ ، ابوالفداء ٣ : ١٢ ، منقريوس ١٨٣
كرد علي ٢ : ١٠

وبذلك قبض زكي على ناصية شمر من اهم شغور الروم في البلاد الشامية الشمالية، وحصن من اخضر حصون الفرنج على سلامة الدولة الاسلامية . يظهر ان استيلاء المسلمين على حصن بعين قد زاد زكي حيوية ونشاطا ، اذ تذكر المصادر انه في اثناء حصاره الحصن الكبير ، سير جندا الى المعرة وكفرطاب واستولى عليهما^١ ، واعاد فيهما الى الناس املآكهم التي كان قد سلبها الفرنج من قبله^٢.

٠٢٢ . ملك زكي حمص سنة ٥٢٢ هـ = ١١٣٨ م

واستتب لزكي الامر ردحا من الزمن وطادت البلاد الى القرار والاعطمثان ومضت بعد ذلك الايام دون ان يحدث فيها حادث هام يسترعي انتباه التاريخ والمؤرخين ، وانصرف عماد الدين زكي الى اقرار حياته الداخلية وتثبيت دعائمه في البلاد التي فتحها واعاد العدة للمستقبل ، حتى بزغ فجر عام ٥٢٢ هـ اذ وجد زكي من نفسه سافرا للفتح ومن قوته دافعا للمهجوم ، فجهز جيشه واعده للرحيل الى حيث الفتح والغنائم ، ونفق بوق النفير في المحرم من السنة المذكورة^٣ وسار على رأس جيش نحو حمص ، فمر في طريقه بحماه ثم عرج في طريقه على بعلبك ، فملك حصن المجدل وكان لصاحب دمشق ، ولما سمع بذلك متحفظ بانيار ، وبانيار لصاحب دمشق ايضا ، سارع الى مراسلته وتقديم الخاعة اليه ثم سار زكي قاصدا مدينة حمص حتى وصلها فحارب عليها الحصار واستمر يقاتل اهلها الى ان بلغه امر هجوم الروم على حلب فاضطر لان يرفع الحصار عن حمص ويرحل عنها الى (السلمية) حتى اذا انجلت حادثة الروم عاد الى حمص فحارب عليها الحصار ونزلها وارسل الى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب اليه امه ليتزوجها^٤ واسمها على ما تذكره المصادر زمردخاتون ابنة جاولي^٥ ، وهي التي قتلت ابنها شمر الملوك ، ويظهر ان شهاب الدين نزل عند ارادة زكي فسمح له بالزواج بامه ، فتزوجها زكي في رمضان سنة ٥٢٢ هـ^٦ وخضعت له حمص وقلعتها . ولا تذكر المصادر باسباب الاسباب التي

٠١ ابن الاثير ١١ : ٢٢ ، ابوالفداء ٣ : ١٢ ، ابن الوردي ٢ : ٤١
٠٢ ابن الاثير ١١ : ٢٢ ، كرد علي ٢ : ١٠ ٠٣ ابوالفداء ٣ : ١٢ ، ابن الوردي ٢ : ٤٢
كرد علي ٢ : ١١ ، منقريوس ١٨٣ ٠٤ ابن الاثير ١١ : ٢٣ ، ابوالفداء ٣ : ١٢
ابن القلانسي ٢٦٦ ٠٥ ابن الاثير ١١ : ٢٣ ، ابوالفداء ٣ : ١٢ ، ابن الوردي
٤١ : ٢ ٠٦ ابن الاثير ١١ : ٢٣

حملت زنكي على التزوج بام شهاب الدين صاحب دمشق، ولعل اقرب الاقوال الى الصواب ما يذهب اليه ابن الاثير في كامله من ان الدافع الاول لهذا العمل هو امل زنكي في الاستيلاء على دمشق من وراء هذا الزواج لما تتمتع به زمرد خاتون من النفوذ والسلطان^١. ولكن زنكي لم يبلغ النغاية التي كان يستهدفها، بل خاب امله ولم يحدث على مدينة دمشق^٢.

٢٣. زنكي وملك الروم ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ - ١١٣٨ م

لقد اثار استيلاء المسلمين على حصن بحرين حفيظة الروم واوقد النار في قلوبهم لانه افقدهم ثغرا من اهم ثغورهم ومركزا من اهم مراكزهم الحربية. فعمل ملك الروم على تجنيد رجاله للسير الى بلاد الشام، وتوظيف قدمه في ارضها واستعادة ما فقد منها. حتى اذا كانت غضون سنة ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ - ١٠٣٨ م خرج الروم من القسطنطينية في عدد عديد وعدة عظيمة، ساروا جنوبا نحو الشام حتى وصلوا مدينة بزاعة، وهي على مرحلة من حلب فحاصروها وفتحوها بامان^٣ حتى اذا دخلوها اتوا عليها قتلا وسلبا وعاثوا فيها فسادا سجله التاريخ عليهم في صفحاته^٤. ويقول ابن الاثير في كامله "وكان عدّة من جرح فيها من اهلها خمسة الاف وثمانمئة نفس، وتنصر قاضيها وجماعة من اهلها نحو اربعمائة نفس"^٥. ثم رحلوا الى حلب فلم يحصلوا على شيء، فرحلوا عنها الى قلعة الاثارب، فهرب اهلها عنها فملكوها^٦.

وبعد ان دانت لهم مدينة بزاعة والاثارب ساروا جنوبا الى قلعة شيزر وهي على ما تذكره المصادر "حصن منيع على مرحلة من حماه"^٧. وتقول المصادر ان حصار الروم لهذه القلعة كان على اساس انها ليست لعماد الدين زنكي، وانما هي للامير ابي العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني^٨.

١. ابن الاثير ١١: ٢٣، منقريوس ١٨٣ ٠٢ ابن الاثير ١١: ٢٣، منقريوس ١٨٣
٢. ابن الاثير ١١: ٢٣، ملوك الموصل ٩٨ ٠٤ ابن الاثير ١١: ٢٣ ٠٥ ابن الاثير ١١: ٢٣
٣. ابن الاثير ١١: ٢٣ ٠٦ ملوك الموصل ٩٨
٤. الروضتين ٣٨، الحريري ٥٦ ٠٨ ابن الاثير ١١: ٢٣، ملوك الموصل ٩٨
٥. ابوالفداء ٣: ١٣، الروضتين ٣٢، منقريوس ١٨٤، ابن الوردي ٢: ٤٢

فنصب الروم على المدينة المنجنيقات، ويذهب الرواة الى انها كانت ثمانية عشر منجنيقا^١ وشدوا الحصار على المدينة وضيقوا على اهلها، فاضطر هؤلاء لاجالة الطرف باحثين عن قوة تنجدهم، فلم يجدوا اقوى من عماد الدين زنكي، فأرسلوا اليه الرسل يستنجدونه، فسار اليهم ونزل على نهر العاصي، كما يذكر ذلك ابن الاثير في كتابه الكامل^٢.

ولما وصل عماد الدين القلعة بعث الى ملك الروم بطلب يذكره ابن الاثير^٣، وموآداه على لسان صاحب الكامل "انكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال فانزلوها الى الصحراء حتى نلتقي فان ظفرت بكم ارحمت المسلمين منكم وان ظفرتم استرحتم واخذتم شيزر وغيرها^٤". ولكن ملك الروم لم يأبه بكلام زنكي، بل ظل مشابرا على حصاره، فعمد زنكي آنئذ الى الحيلة، وزنكي ممن يحسنون الحيل والخدع فأرسل لملك الروم يوهمه بان اهل الشام منشقين عليه وليسوا معه، وفي الوقت نفسه ارسل الى فونج الشام يخوفهم من ملك الروم^٥. وظهر ان سياسة زنكي هذه قد اتت أكلها، فرحل ملك الروم عن شيزر بعد ان صونح بمال^٦ في رمضان بعد ان اقام عليها (٤٠ يوما)^٦، تاركا آلات الحصار من منجنيقات وغيرها^٧. فسار اليها عماد الدين زنكي^٨ وظفر بجميع ما تركوا ورفعوا الى قلعة حلب^٩ وبذلك خلص زنكي الحصن من الروم^{١٠}، فانطلق بذلك لسان الشعراء في مدح عماد الدين زنكي وتعداد مناقبه^{١٠}. قال المسلم بن الخضر بن قيم الحموي:

بعزمك ايها الملك العظيم تذلل لك الصعاب وتستقيم
الم تر ان كلب الروم لسا تبين انه الملك الرحيم
فجاء فطبق الفلوات خيلا كأن الجحافل الليل البهيم^{١١}

- ٠١ ابو الفداء ٣: ١٣، ابن الوردي ٢: ٤٢، منقريوس ٢٨٤ ٠٢ ابن الاثير ١١: ٢٣
٠٣ ابن الاثير ١١: ٢٣ ٠٤ ابن الاثير ١١: ٢٣، ملوك الموصل ١٠٢
الروضتين ٣٢، كرد علي ٢: ١٢ ٠٥ ابن الاثير ١١: ٢٣، الروضتين ٣٢، ستيفنسن ١٤١
٠٦ ابن الاثير ١١: ٢٣ ٠٧ ملوك الموصل ١٠٢ ٠٨ اسامة بن منقذ ٣، ابن
الاثير ١١: ٢٣، ابو الفداء ٣: ١٣، ابن الوردي ٢: ٤٢
٠٩ ابن الاثير ملوك الموصل ١٠٢ ١٠ ابن الاثير ملوك الموصل ١٠٢
ابن القلاسي ٢٦٤، ستيفنسن ١٤١ ١١ ابن الاثير ١١: ٢٤

وبعد ان تم لزنيكي ملك شيزر سار عنها جنوبا الى حصن عرقة ، وهو من اعمال طرابلس ، فالقى عليه الحصار ولم يزل به حتى فتحه عنوة ، ولم يمتلك نفسه عن نهبه وسلبه وتخريبه واسر من به من الفرنج مقابل ما قام به ملك الروم قبل ذلك في شيزر من نهب وسلب .^١

٠٢٤ . ملك زنكي بعليك ٥٢٣ هـ = ١١٣٩ م

سرنا مع زنكي في حروبه في الشام واستيلائه على حصن بعين ثم على حمص ، ووقفنا عند جهاده مع ملك الروم وفتحه مدينة بزاعة وقلعة شيزر واخضاعه حصن عرقة . ولا بد لنا ونحن نؤرخ سيرته من ان نتابع احداثه بكاملها ، واذا نحن راجعنا المصادر التاريخية وجدناها لا تقف عند ذكر جهاده مع الروم ، بل تتابع ذلك الى ذكر باقي سيرته المليئة بالاحداث . ولعل اشهر ما تذكره عن عماد الدين بعد حروبه مع الروم ، ملكه مدينة بعليك في ذي القعدة من سنة ٥٢٣ هـ ، اغسطس سنة ١١٣٩ م ، باجماع المصادر التاريخية التي بين ايدينا^٢ وسبب مسيره الى بعليك انه لما قتل محمود صاحب دمشق بلغ خبر نعيه اسماع والدته زمرد خاتون زوج عماد الدين زنكي وهي في حلب ، فأكلم ذلك قلبها وعوضها الى اشد نوازل الحزن والاسى^٣ ، وكان مما يزيد في المها واساها انه قتل غدرا . لذلك لم تأل جهدا في الاخذ بثأره ، فأرسلت الى زوجها عماد الدين وهو يومئذ بديار الجزيرة^٤ تخبره الخبر وتحرضه بحرارة على قصد دمشق والانتقام لولدها من اولئك الذين غدروا به ظلما وعدوانا . فما ان بلغت الرسالة بعليها^٥ ، عماد الدين زنكي ، حتى بادر في الحال الى تلبية طلبها ، وكيف لا ينزل زنكي عند ارادتها من السير الى الشام ، وهو الذي يحلم في هذه الامنية منذ امد بعيد . سار زنكي الى دمشق مستبشرا وكله امل ان الوقت قد حان لاستيلائه عليها . ولكن اخبار مسيره وصلت دمشق قبل ان يصل اليها جيشه فاحتاط من بها واستعدوا " واستكروا من الذخائر ولم يتركوا شيئا مما يحتاجون اليه الا وبذلوا الجهد في تحصيله " .^٦ واقاموا ينظرون وروده

١ . ملوك الموصل ١٠٢ ٠٢ ابن الاثير ١١ : ٢٨ ، ابو الفداء ٣ : ١٤ ، ابن الوردي

٢ : ٤٣ ، ستيفنسن ١٤٤ ، الموسوعة ٤ : ١١٢٥ ٠٣ ابن الاثير ١١ : ٢٨

٤ . ابن الاثير ١١ : ٢٨ ٠٥ ابن الاثير ١١ : ٢٨ ٠٦ ابن الاثير ١١ : ٢٨

اليهم ليقاوموه اشد المقاومة . وفي هذه الاثناء بينما كانت دمشق تستعد لاستقبال عماد الدين زنكي بالحرب ، كان زنكي من قبله يرسل معين الدين انر صاحب بعلبك ووزير دمشق ، يبذل له البذول العظيمة ، غالبا منه تسليم دمشق^١ ، فلم يأبه معين الدين لمواعيد زنكي ولم يرد عليه ، مما اضطر زنكي ان يعرض عن خطته في حصار دمشق مؤقتا ، ويسير الى بعلبك ينزل بصاحبها ضربته القاضية . وسار فعلا اليها ، فوصلها في العشرين من ذي الحجة سنة ٥٣٣ هـ ، ونازلها بعساكره ، وجد في محاربتها ، ونصب عليها من المنجنيقات اربعة عشر منجنيقا^٢ ، ولم يزل يضيق عليها الخناق حتى اوشك اهلها على الهلاك ، فلم يجدوا بدا من مراسلته وطلب الامان ، فأجابهم الى مطلبهم وتسلم المدينة^٣ . الا ان قلعتها لم تنزل في ايدي شردمة قليلة من اهل بعلبك ، ممن ابوا التسليم والخضوع^٤ ، فقاتلهم زنكي اشد القتال حتى تسرب اليأس والجزع الى قلوبهم ، فاضطروا لطلب الامان والتسليم والاذعان ، فأمنهم وتسلم القلعة^٥ ، حتى اذا ما نزلوا منها غدر بهم ، وامر بصلبهم ، فصلبوا^٦ ، ويضيف الى ذلك ستيفنسن قائلا " ان عماد الدين زنكي اقسم بالقرآن الكريم ، وبطلاق ازواجه بحفظ ارواح من في القلعة ، ولكنه احنث ، فطرد الحاكم وشنق ٣٧ رجلا من اتباعه " ستيفنسن ١٤٤ . فكان لعمل عماد الدين هذا اسوأ الاثر في نفوس اهل دمشق ، مما زادهم حنقا عليه ، ونشاطا في مقاتلته . وبعد ان دانت له بعلبك بأسرها ، ولق عليها نجم الدين ايوب والد البطل صلاح الدين الايوبي^٧ .

٢٥ . زنكي يضرب الحصار على دمشق ، ربيع الأول ٥٣٤ هـ = ١١٤٠ م

بعد ان فرغ زنكي من امر بعلبك ، وقرر قواعدها ، واصلح حالها ، سار الى دمشق هدفه الاسمي ، فنزل بارض البقاع ، وارسل الى جمال الدين محمد بن جوري بن طخديكين صاحبها^٨ ، يخبره بالامر ، ويقترح عليه ان يسلم اليه دمشق مقابل

-
- ١ ابن الاثير ٢٩ : ١١ ، ابن الاثير ٢٩ : ١١ ، ابن الوردى ٤٣ : ٢
 ٢ ابن الاثير ٢٩ : ١١ ، ابوالفداء ١٤ : ٣ ، الحنبلي ١٢٨ : ٤ ، القرمانى ٢٧٩ ،
 ستيفنسن ١٤٤
 ٣ ابن الاثير ٢٩ : ١١ ، ابوالفداء ١٤ : ٣
 ٤ ابن الاثير ٢٩ : ١١ ، ابوالفداء ١٤ : ٣ ، الموسوعة ١٢٢٥ : ٤
 ٥ ابن الاثير ٢٩ : ١١ ، ابوالفداء ١٤ : ٣ ، ابن الوردى ٤٣ : ٢ ، ملوك الموصل ١٠٥
 ٦ ابن الاثير ٢٩ : ١١ ، ملوك الموصل ١٠٣ ، ابوالفداء ١٥ : ٣ ، ابن القلانسي ٢٧٠ ،
 ستيفنسن ١٤٣ ، الموسوعة ١٢٢٥ : ٤

بلد آخر يهبه زنكي اليه ، فلم يجبه جمال الدين الى ذلك^١ . فلم ير زنكي بدا
من السير الى دمشق ومحاربة اهلها وفتحها عنوة . فسار اليها ونزل داريا^٢ ،
ثلاث عشر يوما خلت من ربيع الاول عام ٥٣٤ هـ^٣ فالتقت طلائع جيشه بطلائع
جيش دمشق ، فاقتتلوا ، وكان الظفر فيها لعسكر زنكي ، فعاد الدمشقيون منهزمين
بعد ان قتل اكثرهم^٤ . فلحق بهم زنكي الى ان وصل ابواب دمشق فتصدى له
جيش الاعداء وقاتلوه وقاموه ، وتصارع الفريقان ردحا من الزمن كان يتبادل فيها ضرب
السيف ووخز الحراب ، حتى انتهى الامر بانهزام الدمشقيين ، واشرفت مدينة دمشق
على الهلال والاستسلام^٥ ، ولكن زنكي امسك عنها مدة عشرة ايام^٦ ، وتابع رسله الى
صاحبها يبذل له حمص وعلبك وغيرها مما يختاره من البلاد مقابل ان يتخلى له
عن دمشق^٧ ، فمال جمال الدين الى التسليم^٨ ، ولكن عارض في ذلك اصحابه وآثروا
المقاومة والحرب الى النهاية ، فعاد القتال والزحف الى اشده . وقد حدثت في
هذه الاثناء ان مرض جمال الدين محمد صاحب دمشق ومات ثمان ايام خلت من
شعبان سنة ٥٣٤ هـ^٩ فولى الملك بعده ابنه بجير الدين ابق^{١٠} ، وقام معين الدين
انر في ترتيب دولته ، فزاد كل ذلك في طمع عماد الدين زنكي ، ودفعه لان يضرب
المدينة بشدة وعنف ، ولم يزل كذلك حتى اضطر انر الى الاستنجاد بالفرنج^{١١} ،
واستدعاهم الى نصرته ، ودفع زنكي عن دمشق ، وبذل لهم في ذلك الاموال ، ووعدهم
ببانياس بعد انتزاعها من يد واليها ابراهيم بن طرخت^{١٢} ، واخذ يخوفهم من عماد
الدين زنكي ان هو ملك دمشق^{١٣} . ويظهر ان الفرنج اقتنعوا بما قاله معين الدين
انر^{١٤} ، فقرروا نجدة دمشق ، وتأهبوا للرحيل اليها ، حتى اذا علم زنكي بذلك سار
الى حوران خامس رمضان من سنة ٥٣٤ هـ وتذكر المصادر انه كان عازما على قتال
الفرنج قبل ان يلتقوا بالدمشقيين^{١٥} . فلما علم الفرنج بخبره لم يفارقوا بلادهم^{١٥}

٠١ ابن الاثير ١١ : ٣٠ ٠٢ ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابن القلانسي ٢٧٠ ، ستيفنسن ١٤٣

٠٣ ابن الاثير ١١ : ٣١ ، ابوالفداء ٣ : ١٥ ، ابن الوردى ٢ : ٤٣ ، بالحريري ٥٧ ، ابن

القلانسي ٢٧٠ ، ستيفنسن ١٤٤ ، الموسوعة ٤ : ٢٢٥ . ٠٤ ابن الاثير ١١ : ٣٠

٠٥ ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابن القلانسي ٢٧١ ٠٦ ابن الاثير ١١ : ٣٠ ٠٧ ابن الاثير

١١ : ٣٠ ، ابوالفداء ٣ : ١٥ ، الموسوعة ٤ : ٢٢٥ ٠٨ ابن الاثير ١١ : ٣٠

٠٩ ملوك الموصل ١٠٣ ، ابن الاثير ١١ : ٣١ ، ستيفنسن ١٤٤ ، الموسوعة ٤ : ٢٢٥

٠١٠ ملوك الموصل ١٠٣ ، ابن الاثير ١١ : ٣١ ، ابوالفداء ٣ : ١٥ ، ابن الوردى ٢ : ٤٣

٠١١ ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ستيفنسن ١٤٥ ٠١٢ ابن القلانسي ٢٧٢ ٠١٣ ابن الاثير ١١ :

٣٠ ٠١٥ ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ستيفنسن ١٤٥ ٠١٤ كرد علي ٢ : ١٢-١٣

فعاد زكي الى حصار دمشق ونزل بعذرا^١، في اليوم السادس من شهر شوال سنة ٥٣٤ هـ . وتذكر المصادر عنه انه احرق عدة قرى في المرح والغوطة^٢ . ثم انه لما رأى من صمود دمشق ما رأى، وسمع من نصرة الفرنج لاهل دمشق ما سمع، رحل عائدا الى بلاده^٣ . ولم يلبث ان ترك بلاد الشام، حتى وصل الفرنج مدينة دمشق، واتصلوا بصاحبها واهلها .

وبعد ان اقام الفرنج بدمشق قليلا، سار معين الدين انر الى بانياس وفاء بوعده للفرنج^٤ . وكانت بانياس يومئذ في طاعة عماد الدين زكي، موليا عليها من قبله ابراهيم طرخت الذي مر ذكره الان^٥، فضرب عليها الحصار، ولم يزل الفريقان يتقاتلان حتى استطاع معين الدين انر بمساعدة من معه من جند الفرنج، من الاستيلاء على مدينة بانياس، وتسليمها الى الفرنج بناء على ما كان قد قطعه على نفسه من العهد^٦ .

انتشرت الاخبار ان الفرنج قد استولوا على مدينة بانياس بمؤامرة دبرها معين الدين انر، وان عسكر عماد الدين فيها قد انهزم وتشتت، وبلغت الاخبار تلك فيمن بلغت اليه اسماع عماد الدين زكي، صاحب بانياس، فثار غضبا، من عمل معين الدين انر خصوصا، وازمع على الرجيل اليه، ومقاتلته حتى النهاية . جمع عماد الدين فلوله، واعد لذلك جيشا جبارا، ووژهه على اعمال دمشق^٧، فسارت فرقة من جيشه الى حوران، وسار هو على رأس معظم جيشه الى دمشق ونازلها سحرا^٨ وضرب عليها الحصار ثانية، حتى اذا اصبح الصباح علم اهل دمشق بالخبر وابتغوا من الخطر المحقق بهم، فضربت ابواق الجهاد، ونودي بالنفير العام، فاجتمع العسكر على السور، وفتحت الابواب، والتحم الجيشان في ملحمة عنيفة، اسفرت عن تراجع الجيش الاتابكي^٩ لما حل به من فتك الاعداء، فرحل عماد الدين الى مرج راهط^{١٠}، حيث اقام خيامه، منتظرا عودة فلول جيشه المغلوب على

١ ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، الحريري ٥٧ : ٥٢ ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، الحريري ٥٧ : ٥٣ ابن الاثير ١١ : ٣٠ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، ابن الوردي ٤٣ : ٢ ، منقربوس ١٨٢ ، الحريري ٥٨ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥ ٠٤ ابن الاثير ١١ : ٣١
ستيفنسن ١٤٥ ٠٥ ابن القلانسي ٢٧٢ ٠٦ ابن الاثير ١١ : ٣١ ، كرد علي ٢ : ١٢ -
١٣ ٠٧ ابن الاثير ١١ : ٣١ ٠٨ ابن الاثير ١١ : ٣١ ، الحريري ٥٨
٠٩ ابن الاثير ١١ : ٣١ ٠١٠ ابن الاثير ١١ : ٣١

امره ، والمخدول في خطته ، حتى اذا عاد اليه ، وقد ملئت ايدى افراده بالغنائم لانهم "طرقوا البلاد واهلها غافلون" ،^١ رحل بهم عائدا الى بلاده صفر اليدين .

وهكذا نلاحظ ان قوة زنكي وان كانت تثبت امام البلاد الشامية ، وتفتح الحصون والشعور ، الا انها تقف مكتوفة الايدى امام دمشق لا تبدي حراكا .
فمرتان في هذه السنة ، سنة ٥٣٤ هـ = ١١٤٠ م^٢ يحاول عماد الدين زنكي الاستيلاء على دمشق وتخييب آماله الظروف ، ومرتان يلقي عليها حصاره ويعود منها خائبا محسورا ، ممنيا نفسه انه في مناسبة اخرى سوف يمد اليها يده وسلطانه ، وقد بقي زنكي طول حياته وهو يأمل هذا الامل ، ويحلم هذا الحلم ، ولكن عبثا يحاول زنكي ، ان وقفت الاقدار بوجهه ، وردته عن تحقيق مبتغاه .

٠٢٦ . ملك عماد الدين زنكي قلعة شهرزور ٥٣٤ هـ = ١١٤٠ م

عاد عماد الدين زنكي من دمشق بعد ان حاصرها الحصار الثاني خائبا ، معللا نفسه بالعودة اليها في يوم آخر وهو اكثر عددا واقوى عدة ، ووجه انظاره موقتا عنها الى غيرها مما هو اضعف منها مناعة ، واقترب الى الاستيلاء ، فأجال نظره حوله ، فلم يجد اقرب من قلعة شهرزور الحصينة ، فاستعد لمانزلتها ، وجمع فلوله لحصارها . وكانت شهرزور واعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال بيد قفجاق بن ارسلان تاش التركماني^٣ ، وكان ذا سلطان عظيم ، وكلمة نافذة لدى اتباعه التركمان قاصيهم ودانيهم^٤ . ومما زاد في نفوذه ، ان احدا من الملوك لم يجراً على التعرض له^٥ لما كانت تتمتع به هذه القلعة من الحصانة والمنعة . فحدثت عماد الدين نفسه ان يتعرض لهذا الحصن وصاحبه ، ويستولي عليه ، لينعم بموقعه الحصين ، ويقضي على سلطان صاحبه الكبير ، ومن غير عماد الدين زنكي ، ملك الامراء كما يسميه صاحب كتاب الاعتبار ص ٣٠ ، يجروا على تحدى مثل هذا الحصن واميره ذى السلطان ،

٠١ ابن الاثير ١١ : ٣١ ٠٢ ابن الاثير ١١ : ٣٠ - ٣١

٠٣ ملوك الموصل ١٣ ، ابن الاثير ١١ : ٣١ ، ابو الفداء ٣ : ١٥ ، ابن الوردي ٢ : ٤٣

الروضتين ٣٣ ٠٤ ابن الاثير ١١ : ٣١ ، ملوك الموصل ١٠٢ ، الروضتين ٣٣

٠٥ ابن الاثير ١١ : ٣١

فازمع زنكي على ذلك ، وجمع اصحابه يعرض لهم رأيه ، فحذروه من ذلك ، وأشاروا عليه بالانصراف عن ذلك لما لهذا الامير من الاعوان والاتباع " وانه ان ضيق عليه سلم الولاية الى السلطان مسعود "١٠ ولكن ، لم يكن ذلك مما يفت بساعد زنكي ، او يصرفه عن عزمه ، فسير الى القلعة سنة ٥٣٤ هـ عسكرا كثيرا كما تروى ذلك المصادر^٢ وما ان بلغ الامر قفجاق حتى جمع من التركمان من يقدر على حمل السلاح^٣ ، وكان لديه بذلك جمع كبير ، يصفه صاحب كتاب ملوك الموصل بقوله " واجتمع عنده من الكثرة ما سد بهم الفضاء "٤

تابع عسكر عماد الدين زنكي المسير الى القلعة حتى اذا وصلوها ، وقعت بين الفريقين معارك حامية الوطيس ، دارت فيها السيوف ولعبت فيها الرماح ، كان وقعها على عسكر قفجاق عظيما ، حتى اذا جن الليل ، اسفرت المعارك عن هزيمة اهل القلعة وانكسارهم شر كسرة^٥ . ففروا منهزمين " لا يلوى اخ على اخيه ، ولا ولد على والده "٦ . ولحق بهم عسكر زنكي يطاردهم ذات اليمين وذات الشمال ، حتى ابادهم ودخلوا القلعة ، ودانت لهم البلاد^٧ ، فاصح الشهيد عماد الدين احوالها ، واحسن الى اهلها ، وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من غت التركمان وجورهم^٨ ، ودخل قفجاق في جيشهم ، وانخرط في عسكرهم " ولم يزل هو وبنوه في خدمة البيت على احسن قضية الى بعد سنة ستعائة بقليل وفارقوها "٩ .

٠٢٧ زنكي وسقمان سنة ٥٣٥ هـ = ١١٤١ م

مضت سنة ٥٣٤ هـ على ما مر معنا ، ودخلت سنة ٥٣٥ . ومن يلقي نظرة على المصادر التاريخية يجد ان اهم الحوادث المقرونة باسم عماد الدين زنكي في هذه السنة هي حادثة النزاع الذي حصل بين بطلنا اتابك وبين داود سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا ، ذلك النزاع الذي ادّى الى حرب شديدة بين الفريقين

٠١ ملوك الموصل ١٠٣ ٠٢ ابن الاثير ٣١ : ١١ ، ملوك الموصل ١٠٢ ، ابو

الفداء ١٥ : ٣ ، الروضتين ٣٣ ٠٣ ابن الاثير ٣١ : ١١ ٠٤ ملوك الموصل ١٠٣

٠٥ ابن الاثير ٣١ : ١١ ٠٦ ملوك الموصل ١٠٣ ٠٧ ابن الاثير ٣١ : ١١

ملوك الموصل ١٠٣ ، ابو الفداء ١٥ : ٣ ، ابن الوردى ٤٣ : ٢ ، الروضتين ٣٣

٠٧ ملوك الموصل ١٠٣ ٠٨ ابن الاثير ٣١ : ١١

انهزم على اثرها جيش داود وملك زنكي من بلاده قلعة بهمود . ثم يظهر انه ادركه الشتاء فعاد الى الموصل دون ان يجاوز ما اخضع من البلاد . وقضى اتاك ببقية هذه السنة في الموصل دون ان يقوم بشيء يذكر .

ثم دخلت السنة التي تليها وهي سنة ٥٣٦ هـ ، ويظهر انها كانت لعاماد الدين سنة راحة وسكينة وهدوء ، لان المصادر لا تشير الى اقل حادث جرى لزنكي في هذه السنة ، مما يدل على انه ربما كان منصرفا فيها الى اقرار اموره الداخلية وتثبيت دعائم وتنظيم ادارته وما يلها .

٢٨ . عاماد الدين زنكي والاكراة الهكارية سنة ٥٣٧ هـ = ١١٤٢ - ١١٤٣ م

بقي زنكي بعد اخضاعه داود سقمان واستيلائه على قلعة بهمود هادئا لا تسمع له صوتا حتى ادركته سنة ٥٣٧ هـ ان ملّ السكينة والراحة ، فأخذ يفتش عن حرب يرضي بها شهوة نفسه الجامحة ، فوجد في الاكراة الهكارية ما يروى غليله من القتال . وكان هوءاء على ما يقوله صاحب ملوك الموصل " قد اكثروا في الارض الفساد " . فجهز جيشا فاده بنفسه الى بلاد الهكارية ، وحاصر قلعة (أشب) الشهيرة وهي من اعظم حصونهم وامنعها " وبها اموالهم واهلهم " ، وضيق الحصار على من فيها ، وقطع عنهم الارزاق حتى اضطرهم الى التسليم ، فدخل الحصن واعمل في اهله السيف ، ثم امر بتخريبه وبناء القلعة المعروفة بالعمادية عوضا عنه . وقد سميت القلعة بالعمادية نسبة الى عاماد الدين زنكي .

وبعد ان تمّ لزنكي فتح قلعة أشب وتخریبها ، طلب من صاحب (آمد) ان ينفصل عن صاحب الحصن ركن الدولة داود ، وأن يقطع معه كل علاقاته ، وينتقي اليه ويخطب له ، فأجاباه الى ذلك رهبة وجزئا وصار في طاعته .^٤

٢٩ . ملكه عانة سنة ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م

وان فرغ زنكي من حروبه في الشرق مع الاكراة بلغه ان مدينة عانة

٠١ ابن الاثير ١١: ٣٢ ٠٢ ملوك الموصل ١١٤

٠٣ ابن الاثير ١١: ٣٧ ٠٤ ملوك الموصل ١١٥

قد ثارت عليه وان اهلها شقوا عصا الطاعة واعلنوا ثورتهم عليه^١ ، فلم يكن منه الا ان ارسل جيوشه اليها وملكها وخضع اهلها واعادهم الى طاعته . وتختلف المصادر في تاريخ استيلاء زنكي على مدينة عانة ، فمن المؤرخين من يجعلها في سنة ٥٢٧ هـ كصاحب الروضتين^٢ ، ومنهم من يجعل ذلك سنة ٥٣٦ هـ كابن القلانسي^٣ ومنهم من يجعل ذلك في سنة ٥٣٨ هـ كصاحب ملوك الموصل^٤ ، وابي الفداء^٥ ، وابن الوردي^٦ ونحن اميل الى ان الحادث حدث سنة ٥٣٨ هـ ، وحجتنا في ذلك المفاضلة بين الرواة من ان ابن الاثير اقرب الى الاصلية من غيره من الرواة ان هو اقدم المؤرخين الذين نرجع اليهم في ذكر سيرة عماد الدين ، اضاف الى ذلك ان ابن الاثير يستقى اكثر اخباره عن والده ، ووالده كان وزيرا لدى عماد الدين ، وكان عائشا في البلاط الاتابكي ، فهو من هذه الناحية افضل من سواء ، ان يستند الى مرجع رسمي . ولعل الصواب يكون خلاف ذلك الا ان ما يتراءى لنا الان في هذه الحادثة ان نميل الى رواية ابن الاثير ، فنقول ان تاريخ استيلاء عماد الدين زنكي على مدينة عانة كان في سنة ٥٣٨ هـ .

٠٣٠ توتر العلاقات بين زنكي ومسعود سنة ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م

كان السلطان مسعود لما افضت السلطنة اليه لا يزال الامراء والاكابر واصحاب الاطراف يخرجون عن طاعته ، وكان كلما انشق عليه اميدا وحدث حادث نسبة الى عماد الدين وظن انه هو الذي اشار به وسعى فيه لعلمه ان جماعة الامراء لا يخرجون عن رأى زنكي^٧ وارادته ، لما اتصف به من التعقل في الامور والاتزان في التصرف ، في الامور السياسية والحربية والادارية . ولعل السلطان مصيب في رأيه لان زنكي كان في الواقع يقوم بشتى انواع المناورات ، ويقود تلك الحركات والمؤامرات على السلطان ليشغله عن شأنه وفتوحه^٨ ، فلا يترك له مجالا للتدخل في شؤونه . وكان السلطان مسعود يتحين الفرص المناسبة ليحمل على زنكي ويضرب

-
- ٠١ ابن القلانسي ٢٨٠ ٠٢ الروضتين ٣٦ ٠٣ ابن القلانسي ٢٨٠
٠٤ ملوك الموصل ١١٨ ٠٥ ابي الفداء ١٦:٣ ٠٦ ابن الوردي ٤٤:٢
٠٧ ملوك الموصل ١١٥ ، ابن الاثير ٣٨:١١ ٠٨ ابن الاثير ٣٨:١١ ، ملوك الموصل ١١٥

على يده . فوجد في سنة ٥٣٨ هـ من وقته فراغا ليقوم بخارته على زنكي^١ .
حتى اذا انتصفت سنة ٥٣٨ هـ ، جمع السلطان مسعود عساكره وتأهب للمرحيل .
فبلغ الامراسماع زنكي ، فافترعه ذلك لانه لم يجد في نفسه وجيشه ما يستطيع به
ان يقاوم عسكر السلطان ، وفكر زنكي في الموقف ودحا من الزمن ، فلم يجد اولى
من ان يرسل السلطان ويطلب اليه الصلح والامان^٢ ، وتبذلت الرسائل بين
الفرقيين زما وجاوز ذلك زنكي الى رسل كان يبحث بهم الى السلطان يستعطفه
ويستميله^٣ ، فارسل اليه السلطان ابا عبد الله بن الانباري^٤ ، يحمل معه شروط الصلح
وهي : ٥

(١) ان يدفع عماد الدين زنكي مائة الف دينار الى السلطان مسعود

(٢) ان يحضر زنكي نفسه في خدمة السلطان مسعود

ويظهر ان زنكي قد نزل عند ارادة السلطان وخضع لشروطه دون
الشرط الثاني اذا اعتذر عن تلبيةه لاشتغاله بأمر الفرنج^١ ، فقبل السلطان ذلك منه .
مشرطا عليه فتح الرها^٢ . ولعل الدافع الرئيسي الذي حدا بالسلطان مسعود لان
يتساهل في شروط الصلح الى هذا الحد ، وان يقبل اعتذار زنكي عن الحضور
لخدمته ما كان يحيط بلاد الموصل من الاخطار ان قيل له^٣ ان تلك البلاد
لا يقدر على حفظها من الفرنج غير اتابك عماد الدين فانها قد وليها من قبله
مثل جاولي ، ومودود ، وجيوش بك ، والبرسقي ، وغيرهم ، من الامراء وكان السلاطين
يمدونهم بالعساكر ولا يقدرون على حفظها ولا يزال الفرنج يأخذون منها البلد
بعد البلد الى ان وليها اتابك فلم يمده احد من السلاطين بقارس ولا بمال
ومع هذا فقد فتح من العدو عدة حصون^٤ . اذف الى ذلك ان السلطان مسعود
بالرغم من كل ما حدث له من زنكي كان واثقا من اخلاصه له وذلك لان الابن
الاكبر للشهيد المدعو بسيف الدين غازي كان في خدمة السلطان مسعود بأمر

١ ابن الاثير ١١ : ٣٨ ، ملوك الموصل ١١٥ ، ابوالفداء ٣ : ١٦ ، ابن الوردي ٢ : ٤٤

الروضتين ٣٦ - ٢ ملوك الموصل ١١٦ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥

٣ ابن الاثير ١١ : ٣٨ - ٤ ابن الاثير ١١ : ٣٨ - ٥ ابن الاثير ١١ : ٣٨ ،

ملوك الموصل ١١٦ ، الروضتين ٣٦ - ٦ ملوك الموصل ١١٦ ، الروضتين ٣٦

٧ ملوك الموصل ١١٦ ، ابن الاثير ١١ : ٣٨ ، الروضتين ٣٦ - ٨ ملوك الموصل ١١٦

والده^١، وكان السلطان يحبه ويقربه ويعتمد عليه ويشق به^٢. وقد حدث ان ارسل اليه والده زنكي سرا يأمره بالهرب وموافاته بالموصل^٣، وارسل في نفس الوقت الى نائبه في الموصل نصير الدين جقربأمره بمنعه من دخول الموصل ومن المسير اليه ايضا^٤. فنزل سيف الدين عند ارادة والده وترك السلطان مسعودا واتاه الى الموصل فمنعه نائب والده فيها من دخولها، فسأله ان يسمح له بالسير الى والده فأبى ذلك ايضا طالبا منه ان يستأذن والده قبل ان ينادر الموصل اليه. وكان الامر كذلك. فلما بلغت الرسالة عماد الدين ارسل الى ولده جوابا يلومه فيه على ما اقدم عليه من الخروج على امر السلطان، ويطلب منه ان يعود في الحال الى السلطان مسعود ويدخل في خدمته وطاعته^٥، وارتقى ابنه برسول آخر من قبله يحمل الى السلطان مسعود كتابا، مفاداه كما رواه صاحب ملوك الموصل "بلغني ان ولدي فارق خدمتك بغير اذن فلم اجتمع به ورددته الى بابك"^٦. فحل هذا عند السلطان محل القبول والرضاء وكان من اكبر دواعي تساهل السلطان في امر صلحه مع زنكي.

٠٣١. زنكي في ديار بكر وماردين ٥٣٨ هـ = ١١٤٤ م

خلال هذه السنة^٧ وبعد ان تم الصلح بين عماد الدين زنكي وبين السلطان مسعود، عاد الاخير الى بلاده، سار زنكي الى ديار بكر قاصدا فتحها، فحاصر فيها عدة حصون وفتح عدة بلاد تذكر منها المصادر مدينة (طنزة)^٨ و (اسعرد)^٩، ومدينة (المعدن)^{١٠} من بلاد ارمينية، ومدينة (حيزان)^{١١} وحصن (الذوق)^{١٢} (حصن فطليس)^{١٣} وحصن (باتيسة)^{١٤} وحصن (ذي القرنين)^{١٥}.

ثم سار من ديار بكر بعد ان وطد اقدامه فيها، الى ان جاز حدودها وبلغ ماردين فملك حصون (جميلين)^{١٦}، و(الموزر)^{١٧}، وتل موزر^{١٨} ونظم ادارتها تاركا فيها من يحفظها ويقوم عليها^{١٩}. ثم سار عنها الى مدينة آمد^{٢٠} فحصرها ثم ملكها وبعدها سار عنها الى مدينة حاني^{٢١} فحصرها وملكها ايضا بعد ان دوتها.

٠١ ملوك الموصل ١١٧ ٠٢ ملوك الموصل ١١٧ ٠٣ ملوك الموصل ١١٧ ٠٤ ملوك الموصل ١١٧ ٠٥ ملوك الموصل ١١٧ ٠٦ ملوك الموصل ١١٧ ٠٧ ابن الاثير ١١: ٣٩
ملوك الموصل ١١٧، ابو الفداء ٣: ١٦، ابن الوردي ٢: ٤٤ ٠٨ ابن الاثير ١١: ٣٩، ابو الفداء ٣: ١٦ ابن الوردي ٢: ٤٤ ٠٩ ابن الاثير ١١: ٣٩، ملوك الموصل ١١٧ ١٠ ملوك الموصل ١١٧ ٠١١ ابن الاثير ١١: ٣٩، ابو الفداء ٣: ١٦ ٠١٢ ابن الاثير ١١: ٣٩ ابن الوردي ٢: ٤٤ ٠١٣ ملوك الموصل ١١٨ ٠١٤ ابن الاثير ١١: ٣٩

٠٣٢ زنكي وفتح الرها ٥٣٩ هـ = ٢٥ كانون الاول ١١٤٤ م

لقد سرنا وزنكي في فتوحه البلدان وتدويخه الامصار، وحصاره القلاع واخضاعه الحصون . سرنا واياء من الغرب الى الشرق ومن الشمال الى الجنوب ، ووقفنا واياء عند فتوحه في ديار بكر وماردين . ولم يكن زنكي ليكتفي بكل ما احابه من الفتن والغنائم ، بل كان خياله دائما وابدا يتسع لاكثر من نطاقه ، كان ينظر الى ابعد مما كان ينظر اليه القانع ، لذلك لم تمنع عليه سنة الا وعجت باخبار فتوحه وحصاراته ، بل قد لم يضر عليه شهر الا وتلووه المصادر بالحوادث .

ونجده الان في سنة ٥٣٩ هـ = ١١٤٤ - ١١٤٥ م يتناول على مدينة

الرها ، ومدينة الرها كما يعلم الكل تشغل مكانا ساميا في الهلال الخصيب ، وكان لها نصيب وافر من الحركات الفكرية التي قادها البيزنطيون والسريان في القرون الوسطى بالاضافة الى مركزها الحربي وحرمتها الدينية . كانت مركزا من اهم مراكز الاشعاع الفكري المسيحي ، وبقيت لها مكانتها في الاسلام . يقول صاحب ملوك الموصل " والرها من اشرف المدن عند النصارى ، واعظمها محلا ، وهي احد الكراسي عندهم . فأشرفها البيت المقدس ، ثم انطاكية ثم رومية ، ثم القسطنطينية ، فالرها " .^١ كانت هذه المدينة في عهد زنكي تحت سلطة جوسلين صاحب رأى الفرنج والمقدم في عساكرهم ، لما هو عليه من الشجاعة والمكر^٢ . وكان خطر الفرنج قد امتد الى ما بعدها من البلاد وكانت شرورهم لا تزال تتسع وفتنهم تشتد وتعظم وتحيط البلاد الاسلامية قاصيها ودانيها بغاراتهم وهجماتهم^٣ ، وكانوا قد بلغوا شأوا بعيدا في البلاد الاسلامية ، فمدوا ايديهم على آمد ونصيبين ورأس العين والرقبة . يقول صاحب الكامل " وكانت مملكتهم بهذه الديار من قريب ماردين الى الفرات مثل الرها ، وسروج ، والبيرة ، وسن ابن عطية ، وجملين ، والموزر ، والقرادى^٤ " . وكان عماد الدين محيطا بكل ذلك ، عالما بكل ما يدور في هذا القطر العربي ، ولم يكن ليرضى

٠١٥ ابن الاثير ١١ : ٣٩ ، ابن الوردي ٢ : ٤٤ ٠١٦ ابن الاثير ١١ : ٣٩

٠١٧ ملوك الموصل ١١٨ ، ٠١٨ ملوك الموصل ١١٨ ٠١٩ ملوك الموصل ١١٨

٠٢٩ ملوك الموصل ١١٨ ٠٢١ ملوك الموصل ١١٨ ٠١ ملوك الموصل ١١٨

٠٢ ابن الاثير ١١ : ٤٥ ، ابن خلكان ١ : ٢٧٢ ، الروضتين ٣٦ ، الحريري ٥٨

٠٣ ابن الاثير ١١ : ٤٠ ، ملوك الموصل ١١٨ - ١٢٥ ، الروضتين ٣٦

٠٤ ابن الاثير ١١ : ٤٠

ان يعبت اهل الرها بمقدرات البلاد الاسلامية، ويحيثون بها فسادا، وكان
زنكي يعلم الى جانب هذا انه اذا اعلن حصار الرها، وقاد جيوشه اليها، ترك
المجال الى الفرنج ليتجمعوا وصدوا هجماته، فيتعذر عليه ملكها، لما هي عليه
من الحصانة . لذلك اراد ان يفتحها عن غير هذا السبيل، عمد الى الحيلة
والخداع، ذهب الى ديار بكر واخذ يقارع اهليها وينازلهم ويقاتلهم ويحاصر حصونهم
ليوهم الفرنج انه ليست غايته الرها، وانما غايته ديار بكر^١ . فاطمأن جوسلين الى
ان جيوش زنكي انما هي منصرفة عنه الى حروب داخلية، وان زنكي لا يفكر في حرب
الرها وحصارها . وعلى ذلك فارق جوسلين مدينة الرها قاصدا بلاده الشامية
لتقرير اعمالها، راكنا الى ان زنكي مشغول عنه بحرب اهل ديار بكر، وانه ليس لديه
من فراغ الوقت ما يقدم به على حصار الرها^٢ .

جاءت عيون زنكي المنتشرة في الرها تخبره الخبر بسفر جوسلين وترهيه

باغتنام الفرصة قبل فواتها، وكان زنكي بالمرصاد ينتظر مثل هذا الخبر، فنادى
بالجند، فاجتمعوا، وتقدم اليه الامراء يتلقون اوامره^٣ . ويذكر ابن الاثير في كامله
قصة تقع في هذا الموضع وهي انه عندما اجتمع الامراء الى زنكي امر بتهيئة الطعام،
وقال لا يقرب المائدة الا من يطعم غدا معي بباب الرها، فلم يتقدم اليه غير
امير واحد وصبي لا يعرف، لما كان لزنكي من الرهبة والخشوع في صدر رجاله .
فقال الامير ما انت في هذا المقام؟ فقال زنكي دعه فوالله اني ارى وجهها لا
يتخلف عني^٤ . وبعد ان استعد الجيوش، وتهيأت العدة، امر زنكي بالمسير فصار
العسكر يتلو بعضها بعضا، زاحفين نحو الرها .

طارت اخبار الهجوم في البلاد وآفاقها، فسارع الفرنج فيها للتجمع
والقتال، وصد غارة المسلمين عن البلد . ويذكر ابن الاثير في ملوك الموصل ان
اتابك عماد الدين عند وصوله الى الرها، راسل اهليها، يبذل لهم الامان ليسلموه
المدينة سلما دون ان يلجأ الى ضربها وتخريبها، فأبوا الا القتال . فضرب عليهم
الحصار، وسلط عليهم المجانيق، وظل في حصارهم ثمانية وعشرين يوما^٥، كان يرسل

١ ابن الاثير ١١ : ٤٠ ، الروضتين ٣٧ ، الحريري ٥٨ ٠٢ ابن الاثير ١١ : ٤٠ ، ابن
القلانسي ٢٧٩ ، ستيفنسن ١٤٩ ٠٣ ابن الاثير ١١ : ٤٠ ، ملوك الموصل ١١٨ - ١٢٥
الروضتين ٣٧ ، الحريري ٥٨ ٠٤ ابن الاثير ١١ : ٤٠ - ٤١ ٠٥ ابن الاثير ١١ : ٤٠
ملوك الموصل ١١٨ - ١٢٥ ، كرد علي ٢ : ١٣

في خلالها النقايبين ينقبون السور ليفتحوا فيه ثغرا ينسل منه الجنود الى المدينة^١ ويظهر ان عمل النقايبين قد نجح ففتحوا عدة ثغر في السور والقوا منها النار ثم تبعهم الجنود ودخلوا المدينة عنوة وقهرا . كان ذلك في شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٣٩ هـ ٢٥ كانون الاول سنة ١١٤٤ م حين القت المدينة سلاحها مستسلمة للقضاء الجائر، خاضعة لحكم البطل عماد الدين زنكي^٢.

وتذكر المصادر ان زنكي فعل فيها ما يفعله الفاتحون في بلاد الاعداء من نهب وسلب وسبي^٣ "فنگس صلبانها، وباد قسوسها ورهبانها، وقتل شجعانها، وملا الناس ايديهم من النهب"^٤ . ولكن يظهر ان أتاك ندم على ما قام به جنوده من النهب والسلب والتخريب في هذه المدينة الجميلة فأمر بأعادة ما سلبوه من الرجال والنساء والاطفال الى بيوتهم و"أعادة ما غنموه من أثاثهم وامتععتهم"^٥ . فردت الغنائم الى اهلها ولم يفقد الا القليل^٦، وطادت المدينة عامرة بعد خرابها واعاد اهلها الى الاستقرار والاطمئنان بعد الاضطراب والهول والفرع .

وعمل زنكي بعد ذلك على اقرار الادارة الجديدة، وترتيب العسكر والجنود لحفظ المدينة من غارات الفرنج^٧ . وبعد ان استقر الامر له فيها نهائيا سار عنها الى ما كان بيد الفرنج من هذه الناحية من المدن والحصون والقرى، فاستولى على مدينة سروج^٨، وسائر الاماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات .

ويظهر لنا من خلال المصادر انه كان لفتح الرها دوى كبير في

الاصقاع وأثر عظيم في شخصية زنكي نفسه . فقد زاده هذا الفتح مقاما فوق مقامه، واجلالا فوق اجلاله . ملك اليه حب اتباعه، وحبس عليه فزع اعدائه . واستحق زنكي بعد هذا النصر المبين، وبعد هذا الفتح العظيم، لقب "بطل الاسلام" او لقب "الشهيد" . يقول ستيفنسن ما ترجمته "لقد عظمت منزلته بعد اخذه الرها، واستحق زنكي تقدير الناس، فرغبوا بتلقيبه بالشهيد او بطل الاسلام"^٩ . وهناك القيراني بقصيدة منها سحت قبة الاسلام فخرا بطوله ولم يك يسمو الدين لولا عماده^٩

١٠١ ابن الاثير ١١: ٤٠، ملوك الموصل ١١٨-١٢٥، ابن القلانسي ٢٢٩، بالحري ٥٨-٥٩
ستيفنسن ١٥٠ ٠٢ ابن الاثير ١١: ٤٠، ملوك الموصل ١١٨، بلبن خلکان ١: ٢٧٢
ابوالفداء ٣: ١٧، الروضتين ٣٦، كرد علي ٢: ١٣، ابن القلانسي ٢٧٩، باركر ٥١
ستيفنسن ١٥١، الموسوعة ٤: ١٢٢٥

٠٣٣ حصار زنكي قلعة البيرة ٥٣٩ هـ = ١١٤٥ م

لما فرغ الشهيد من اخذ الرها ، واصلاح حالها ، والاستيلاء على ما ورائها من البلاد ، سار الى قلعة البيرة وهي حصن مظل على نهر الفرات ، خاضع لسُلطان جوسلين ملك الفرنج^١ . ضرب زنكي حصاره على القلعة المذكورة ، وقطع عن اهلها الميرة ، وكاد يتم له فتحها لو لا ان جاءه نبأ مقتل نائبه نصير الدين جقر بالموصل ، فاضطر لان يرحل عنها^٢ . فرحل وتقدمت جيوش حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين من القلعة ، فسلمها اهلها اليه خوفا من الشهيد ان يعود اليهم فيخضعها قهرا .

٠٣٤ مقتل نصير الدين جقر ٥٣٩ هـ = ١١٤٥ م

ولا نرى بأسا في هذه المناسبة من أن نذكر لمعا من خبر مقتل نصير الدين جقر نائب عماد الدين في الموصل ، لا لأهمية الخبر بحد ذاته ، ولكن لما له من العلاقة الوثيقة بالبطل الذي نحن بصدده ، ومن التأثير على سياسته وادارته وفتوحاته . فقد رأينا انه على اثر بلوغه خبر نعي نائبه اضطر لان يرفع الحصار عن البيرة^٣ ويرحل عنها .

كان ذلك في ذى القعدة من سنة تسع وثلاثين بعد الخمسمائة هـ^٤ حين طبق الافاق خبر مقتل نصير الدين بمؤامرة دبرها عليه الملك الب ارسلان^٥ ، المعروف بالخفاجي ، سببها ان اثار بعض اعوان الب ارسلان حفيظته على النائب المذكور ، وحسنوا له قتله لما يناله بعد ذلك من ملك الموصل وما اليها^٦ ، فلقي ذلك من الملك اذنا صاغية ، وارسل الى نصير الدين من يقتله ويرمي رأسه الى

-
- ٠٣ ابن الاثير ١١: ٤٠ ، ابن القلانسي ٢٨٠ ، ستيفنسن ١٥١ ، ٠٤ ملوك الموصل ١٢٥
٠٥ ابن الاثير ١١: ٤٠ ، ابن الاثير ١١: ٤٠ ، ابن القلانسي ٢٨٠ ، الحريري ٥٩
٠٧ ابن الاثير ١١: ٤٠ ، ستيفنسن ١٥١ ، ٠٨ ابن الاثير ١١: ٤٠ ، ابوالفداء ٣: ١٧
كرد علي ٢: ٤٣ ، ستيفنسن ١٥١ ، ٠٩ الروضتين ٤٩٩
٠١ ابن الاثير ١١: ٤٠ ، الروضتين ٤٠ ، ٠٢ ابوالفداء ٣: ١٧ ، ابن القلانسي ٢٨٠ ،
الحريري ٥٩ ، ٠٣ ملوك الموصل ١٢٦ ، ابن الوردي ٢: ٤٥ ، الروضتين ٤٩٩
٠٤ ملوك الموصل ١٢٦ ، ابن الوردي ٢: ٤٥ ، ٠٥ ملوك الموصل ١٢٦ ، ابوالفداء ٣: ١٧
٠٦ ملوك الموصل ١٢٦ ، ابوالفداء ٣: ١٧

اصحابه . ولكن شيئا مما كان يؤمله الب ارسلان من نتيجة ذلك لم يحصل ، بل كان الامر على خلاف ما قد اُمل ، ذلك ان الب ارسلان صعد بجيوشه الى قلعة الموصل على اثر نصيحة اسداها اليه الشهرزوري^١ ، على انه لم يلبث الملك ان وصل القلعة حتى احاط به من بها من اتباع زنكي وسجنوه ، وقتلوا من تأمر على حياة نصير الدين جقر ، نائب الشهيد علي الموصل ، ثم ارسلوا عيونهم الى عماد الدين يعلمونه الخبر ، فسكن روعه ، فعيّن شرف الدين ابن اخت نصير الدين المقتول ، واليا على الموصل ، خلفا لخاله وارسله اليها ولكنه لم يعطه امرا خطيا في ذلك حتى اذا وصل شرف الدين هذا ابواب القلعة ، منعه نقيبها المدعو (حسن)^٢ من دخولها ما لم يكن مرفوقا بمنشور عماد الدين وعلامة تسليمه . ثم ترددت الرسل بينهما ، وانتهى الامر بان اذن له بالدخول ، ولكن بينما هو على اهبة دخول القلعة اذا بغبرة تتراءى من بعد ، تتصاعد الى السماء ، فاقام الناس ينتظرونها ، فاذا هي تنكشف عن زين الدين علي كوجك^٣ اجادا لتكون النيابة له في القلعة عوضا عن شرف الدين لامر اُرتاه عماد الدين بعد توليته شرف الدين امر الموصل . ولم تذكر المصادر الاخرى خبر هذا الاستئناف والاستدراك ، ولعلّه في نظرنا ان زين الدين كان في نظر اتابك اجدر بالولاية واحق بالنيابة من شرف الدين فال اليه الامر من دون الاول .

٠٣٥ . زنكي وقلعة فنك ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م

تولى زين الدين علي امر الموصل ، وأقرّ الامور فيها ، واعاد الامن الى نصابه وسارت البلاد بعد ذلك في طريق السلام والاطمئنان ردحا من الزمن ، الى ان كانت سنة ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م^٤ ، اذ ارسل اتابك الى زين الدين يأمره بالرحيل الى حصن فنك المجاور لجزيرة ابن عمر^٥ ، والتابع للاكراد البشنوية^٦ وهو على ما يقوله صاحب ملوك الموصل "حصن من امنع الحصون ، مطل على دجلة ، وله

- ٠١ ملوك الموصل ١٢٦ - ١٢٩ ٠٢ ملوك الموصل ١٢٧ ٠٣ ملوك الموصل ١٢٨
٠٤ ابن الاثير ٤٤: ١١ ، ابوالفداء ٣: ١٨ ، ابن الوردي ٢: ٤٦ ، ملوك الموصل ١٢٩ ، مقرئوس ١٨٤ ، ستيفنسن ١٥١ ٠٥ ابن الاثير ١١: ٤٤ ، ابوالفداء ٣: ١٨ ، ابن الوردي ٢: ٤٦
٠٦ ابن الاثير ١١: ٤٤ ، ملوك الموصل ١٢٩ ، ابن الوردي ٢: ٤٦

سرب الى عين ماء^١. وكان الدافع الرئيسي الذي دفع زنكي لحصارها ما يذكره ابن الاثير من ان "زنكي كان لا يريد ان يكون في وسط بلاده ما هو ملك غيره حزما واحتياطاً^٢". نزل النائب زين الدين عند امر زنكي ، فجمع جيشا كثير العدد ، كامل الحدة ، من الفرسان والمشاة ، وسيّره نحو الحصن ، فحربوا عليه الحصار ، وضيقوا على اهله ، ومنعوا عنهم الميرة وهم صابرون . واقاموا على حصاره مدة كادوا ان ينتصروا فيها على الحصن واهله ، لو لا ان اتتهم آخبار مقتل عماد الدين زنكي ، باعث القوة فيهم ، ففتت في ساعدهم ، وقرقت شملهم ، واضطرتهم الى رفع الحصار^٣ وهكذا زال خطرهم عن الحصن واهله ، و"انكشف ما بهم من الضر"^٤.

٠٣٦ زنكي وقلعة جعبر ٥٤١ هـ = ١١٤٦ - ١١٤٧ م

كانت عساكر زين الدين علي لا تزال محاصرة قلعة الفنك حين خطر لحصاد الدين زنكي ان يوجه جهوده الى حصار قلعة جعبر المطلة على نهر الفرات^٥ ، فيقضي بذلك على مركز من اهم مراكز اعدائه ، والقائمة في بلاده ، ويخلص العالم الاسلامي من خطره ، هذا الدافع الذي دعا لحصار قلعة فنك ، يدفعه هنا ايضا لحصار قلعة جعبر^٦ . وقلعة جعبر هذه كانت بيد سالم بن مالك العقيلي سلمها السلطان ملكشاه الى ابيه لما اخذ منه حلب ، فلم تنزل بيده ويده اولاده الى هذه السنة^٧ . وكان يطلق على هذه القلعة اسم "الدوسرية"^٨ ويقول ابن الغزى في معرض كلامه عن القلعة التي نحن بصددنا "واسمها الدوسرية ، وجعبر هو سابق الدين القشيري الخيري ، شيخ اعمى طال مكثه في هذه القلعة فنسبت اليه"^٩.

-
- ٠١ ملوك الموصل ١٢٩ ٠٢ ابن الاثير ٤٤: ١١ ٠٣ ابن الاثير ٤٤: ١١
٠٤ ملوك الموصل ١٣٠ ٠٥ ابن الاثير ٤٤: ١١ ، ابن الغزى ١ : ٤٨٥ ، ستيفنسن ١٥١ ، ويقول ياقوت " قلعة جعبر على الفرات بين بالس والرقعة قع ب صفين "
باقوق ١٨: ٣ ٠٦ ملوك الموصل ١٣٠ ٠٧ ابن الاثير ٤٤: ١١ ،
ملوك الموصل ١٣٠ ، ابو الفداء ١٨: ٣ ، ابن الغزى ١ : ٤٨٥ ، ابن الوردي ٢ : ٤٦
٠٨ ابن القلانسي ٢٨٤ ٠٩ ابن الغزى ١ : ٤٨٥

لقد كان ذلك في غضون سنة ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م^١ حين سار عماد الدين زنكي على رأس جيوشه الجرارة لمحاصرة هذه القلعة . ولقي زنكي الحصار عليها بنفسه هو، واخذ ينازلها ، ويقاتل من بها^٢ ، ردحا من الزمن ، على ان قوة زنكي لم تفعل شيئا امام هذا الحصن الحصين ، وجد أن الغشل لازم لهجماتة الاولى ، فجنح في فتحها الى سياسة أخرى . عمد الى المراسلة والترهيب لعل ذلك يفتح له الحصن صلحا . والتفت حوله يفتش عن رجل يقوم له بهذه المهمة فلم يجد اجدر واحسن من الامير حسان المنبجي للقيام بهذا الامر ، وكان بين حسان هذا وبين صاحب قلعة جعبر مودة وصداقة ، فأراد ان يستغل زنكي هذه الصداقة ، فأرسل الى حسان يأمره بالمسير الى صديقه صاحب حصن جعبر ويطلب اليه باسم زنكي التسليم لقاء اقطاع وافر وعطاء كثير ، فان أجاب لذلك امن ماله وحياته ، والأ حمل عليه زنكي حملة لا يجد لنفسه منها مخرجا ، وملك القلعة عنوة واتى على اهلها بما يريد ويرغب .

سار حسان المنبجي بهذه الرسالة الى صديقه صاحب الحصن ، وظل وايامه مدة يقنعه بوجوب التسليم ، ولكن تهديد زنكي لم يزد صاحب الحصن الا اصرارا على القتال ، وامتناعا عن التسليم . فعاد حسان خائبا ، واخبر الشهيد بما قد حدث له^٣ . فلم يجد زنكي بعد ذلك بدا من المباشرة على حصار القلعة ومحاولة فتحها عنوة . فشدد عليها الخناق ، وكان ينتهي به الامر الى اخضاعها لولا ان عاجلته منيته ، فقضي وهو في الحصار ، بين دوى المجانيق ، وضرب الرماح والطعن بها ، وصليل السيوف ، ففرق جيشه ، وتفككت عراه ، بعد ان قتل رئيسه وقائده وحاميه . فعاد الجيش خائبا ، كما انسحب الجيش الذي كان محاصرا لقلعة فنك^٤

-
- ١٠ ابن الاثير ١١ : ٤٤ ، ملوك الموصل ١٣٠ ، ابن الخزى ١ : ٤٨٦ ، ابوالفداء ٣ : ١٨
ابن الوردي ٢ : ٤٦ ، ابن القلانسي ٢٨٤ ، ستيفنسن ١٥١ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥
- ٢٠ ابن القلانسي ٢٨٤ ، ملوك الموصل ١٣٠ ، ابن الاثير ١١ : ٤٤ ، ابوالفداء ٣ : ١٨
ابن الوردي ٢ : ٤٦
- ٣٠ ابن الاثير ١١ : ٤٤ ، ملوك الموصل ١٣٠ ، ابوالفداء ٣ : ١٨ ، ابن الوردي ٢ : ٤٤
ابن الخزى ١ : ٤٨٦ ، ابن الاثير ١١ : ٤٤ ، ملوك الموصل ١٣١ ، ابن خلكان
- ١ : ٢٧٢ ، القرطبي ٢٧٩ ، ابن الوردي ١ : ٤٦ ، ابوالفداء ٣ : ١٨ ، ابن الخزى ١ : ٤٨٦
ابن القلانسي ٢٨٤ ، ستيفنسن ١٥٢

٠٣٧ مقتل عماد الدين زنكي ٥٤١ هـ = ١١٤٢ م

كان ذلك في ربيع الاخر من سنة ٥٤١ هـ . لبعض ليال خلين من هذا الشهر قد لا تتجاوز الخمسة على قول اكثر المصادر العربية والفرنجية التي عنيت بهذا الموضوع^١ . ويكاد ابن خلكان ينفرد في رواية يزعم فيها ان مقتل الشهيد كان لخمسـة عشر يوما خلت من ربيع الاخر ، بينما هو يتفق بتفاصيل الرواية مع بقية المصادر . ولا اعتقد انه من الصعب ان ابت في امر كهذا ، فأميل عن رواية ابن خلكان وارجح الروايات الاخرى ، لا سيما وان ابن الاثير اقرب المؤرخين الى الحادثة يعين لنا التاريخ في ٥ ربيع الاخر سنة ٥٤١ هـ واذا زدنا الى ذلك ان ابن الاثير اخذ روايته عن ابيه وان اياه كان شاهدا عيانا حضر بنفسه مقتل الشهيد ، رجحت ولا شك كفة روايته على رواية ابن خلكان . واذا ما اردنا تفسير هذا الاختلاف البسيط ، فحسبنا من ذلك الظن بأن ابن خلكان عند ما نقل الرواية عن ابن الاثير او سواه ، كان اخذه خاطئا ، فاخذ في النقل خمسة عشر يوما عوضا عن خمسة ايام ، وقد يحدث مثل هذا الخطأ كثيرا .

كان زنكي في حصار قلعة جعبر^٢ يقاتل اطراف النهار ويذهب الى فراشه . آناء الليل . فبينما هو في الليلة الخامسة من شهر ربيع الاخر ٥٤١ هـ = ٢٤ سبتمبر ١١٤٦ مستغرق في سبات عميق ، ان دخل عليه نفر من مماليكه وانقضوا عليه وقتلوه غيلة دون ان يجهزوا عليه وهربوا من ليلهم الى القلعة واخبروا اهلها بمقتل الشهيد . ولم يلبثوا حتى انتشر الخبر الاليم بين جيش الشهيد نفسه ، فأخذ اصحابه رعشة وكادوا لا يصدقون ما سمعوا واسرعوا اليه يتحققون من الخبر ودخلوا خيمته ، فاذا هو يعالج النزع الاخير . وكان بين من دخل عليه بعض خواصر والد ابن الاثير ، فادركوه وبه رمق ، وحاولوا سؤاله عن الامر ، فلم يطق المقتول كلاما ، وامتنع عن الجواب حتى فاضت روحه .

١ . ابن الاثير ١١ : ٤٤ ، ملوك الموصل ١٣١ ، المقرئى ١ : ١ : ٣٨ ، الروضتين ٤٢ ، ابو القداء ٣ : ١٨ ، ابن الوردي ٢ : ٤٦ ، ابن القلانسي ٢٨٤ ، الحريري ٥٩ ، الموسوعة ٤ : ٢٢٥

٢ . ابن الاثير ١١ : ٤٥ ، ملوك الموصل ١٣١ ، الروضتين ٤٢ ، القرماني ٢٧٩ ، ابو القداء ٣ : ١٨ ، ابن الوردي ٢ : ٤٦ ، ابن القلانسي ٢٨٤ ، الموسوعة ٤ : ١٢٢٥ ، سلفينسن ١٥٢

يقصر هؤلاء حين عودتهم خبر مقتل هذا الشهيد الى والد ابن الاثير، وابن الاثير هذا كان يتعاطى التاريخ فيثبت لنا الرواية بين صفحات كتابه ملوك الموصل والكامل في التاريخ كما سمعها عن والده . ولا بأس من ايراد هذا الخبر بنصه كما كتبه ابن الاثير . يقول ابن الاثير في معرض بحثه عن مقتل الشهيد ان والدي قد روى لي هذه الرواية بناء على رواية احد خواصه ان كان شاهد عيان فقال - ادركته وهو في السياق ، فحين رأيته ظن اني اريد قتله فأشار الي باصبغه السبابة ، فوقف من هيبتة وقلت له : يا مولانا من فعل بك هذا حتى اقتله؟ فلم يقدر عن الكلام وختم الله بالشهادة اعماله ، وفاضت منه نفسه ، وسكن رسمه ، واصبح معدوما كأن لم تغن بالامس ، وزال عنه الملك ولم يغن عنه اصحابه وعساكره . فقال فيه بعض الشعراء :

فاجب لمن قاد الجيوش ونفسه	قسمان بين الكر والاقدام
يلقي الكتائب مفردا بكتائب	من نفسه واليوم يكدرحامي
لا يرعوى عن ان يقارع وحده	الفا بابيض صام مصمام
يأتي الفتوح على الفتوح بسيفه	وبرأيه وبغزمه المقدام
حتى اذا الاجل انقضى مستكلا	ما خط في الالواح بالاقلام
لاقي الحمام ولم يكن مستيقنا	ان الحمام سيبتلي بحمام

وهاج الخند وماج ، تنقطع نفسه على فقد قائده ، وراح الناس يضربون اخماسا باسداس يقدررون من القاتل . فقد قتله المتآمرون وفروا ولم يرهم احد . الا ان القاتل من غلمانة وماليكه ولا شك ، ان لا يجسر على الدخول عليه ليلا في مثل هذه الساعة الا خواصه من غلمانة فمن يكون هذا المملوك الذي اقدم على قتله ؟ تسكت كل المصادر عنه ، لا لتستر عليه فضيخته بل لجهلها به وباسمه وشخصه . على ان ابن القلانسي وصاحب الروضتين لم يتورعا عن ذكر اسم القاتل فهو في زعمهم رجل افرنجي الاصل يعرف (برتقش) قتله لحقده عليه^٢ ويزيد صاحب الروضتين على ذلك " نذبه برتقش وخرج ومعه خاتمه"^٣.

١ . ابن الاثير ١١ : ٤٥ ، ملوك الموصل ١٣١ ، ابن الوردي ٢ : ٤٦ ، ابوالفداء ٣ : ١٨
كرد علي ٢ : ١٦ ، الحريري ٥٩
٢ . ابن القلانسي ٢٨٤
٣ . الروضتين ٤٢

وكما ان الروايات تختلف بعض الاختلاف في امر تعيين القاتل ، كذلك تختلف بعض الاختلاف في امر دفن الرجل وموضع دفنه . يدعي اكثر المؤرخين ان الشهيد بعد ان قتل احتمله اصحابه الى الرقة ودفنوه فيها بعد ان اقاموا له مراسيم الجنائز والدفن^{١٠} على ان ابن الاثير في كتابه ملوك الموصل^٢ وابن خلكان^٣، وابن القلانسي^٤، يزعمون ان الشهيد حينما اغتاله مماليكه ، احتمله اصحابه الى صفين ، على ضفاف الفرات ، ودفنوه فيها . يقول ابن الاثير " ولما قتل دفن في صفين عند اصحاب امير المؤمنين علي عليه السلام ، ولقد بلغني انه اجتاز بها وزار مشاهدا ، ثم قال - وددت اني شهدت صفين بعسكري مع امير المؤمنين حتى كنت اريه القتال الذي تعجز اصحابه عنه ، ولكل امرئ ما نوى ."

على ان من يتدبر في الامر قليلا ، ويتابع الحوادث ، يجد ان هذه القمامة التي تحيط بامر دفن الشهيد ، لا تلبث ان تنقش ويظهر صدق الفريقين من المؤرخين . ذلك ان عماد الدين زنكي دفن في صفين وفي الرقة . دفن في صفين اولا ، ثم عندما استتب الامر لابنه نور الدين زنكي احتمله الى الرقة حيث اقام له مقاما خاصا ، ونقل اليه رفاتة^٦ ، وهكذا نختم البحث بان الشهيد دفن اولا في صفين ثم نقل الى الرقة حيث مقره الاخير .

٣٨٠ سيرة عماد الدين زنكي

لقد القينا فيما سلف نظرة عامة على اعمال عماد الدين زنكي الحربية واستوفينا بعض الاستيفاء معظم الاحداث التي تحيط بحياته . لا نقول اننا استوعبنا كل ما يجب ان يقال فيه من ناحية اعماله الحربية ، واننا وفياته حقه من البحث ، بل اني اظن ان هناك كثيرا من الاخبار ، وكثيرا من الاحداث التي لم تأت المصادر على ذكرها ، اما لانها لم تستلفت نظر المؤرخين ، او لانها تقع منهم موقع الجهل . وما دامت المصادر التاريخية مقصورة في تاريخ سيرته من هذا القبيل ، فلا ينتظر منا

١٠ القرمانى ٢٧٩ ، ابن الخزى ١ : ٤٨٦ ، ابوالفداء ٣ : ١٨ ، الحريرى ٥٩ ، ابن الوردى ٢ : ٤٦

٢ ملوك الموصل ١٣١-١٣٦ ٣ ص ١ : ٢٧٢ ٤ ص ٢٨٥

٥ ملوك الموصل ١٣٦ ٦ ابن القلانسي ٢٨٥ ، ملوك الموصل ١٣٦

ان نزيد على ما جاء في مصادرهم شيئا ، لان معيننا الذي نستقى منه الاخبار
انما هو معينهم . لذا نقول بكل صراحة ان البحث ناقص ، ويعيد عن ان يكون
كاملا كالأبحاث التاريخية المطلوبة .

على اننا ان نحن اعترفنا بذلك فليس القصور قصورنا ، وليس النقص
نقصنا ، وانما هو قصور المصادر ، وانما هو نقص المؤرخين ، لان ابحاثهم من هذا
القبيل لم تكن بالغة حد الكمال . ويمكننا ان نعلن بكل ارتياح اننا لم نترك مصدرا
من المصادر المعروفة الا واتيينا على قراءته ، واستشقينا من خلاله ما له علاقة
بموضوعنا بحيث لم نهمل منها شيئا ، حرصا منا على الاحاطة بكل ما كتب عنه في
اللغة العربية ، وبأكثر ما كتب عنه في الانكليزية . وانه حقا لما يشلج الصدور ان
المؤرخين لم يهتموا بتاريخ اعمال الشهيد عماد الدين زنكي الحربية فحسب ، كما
عهدناه عند اكثر المؤرخين العرب ، انما هم تعدوا ذلك الى ذكر شيء عن سيرته
واخباره الخاصة . بل هم في بعض الاحيان اتوا على ذكر اوصافه الخارجية ، من طول
وقامة ووجه . ولا ترى بأسا ونحن نؤرخ عماد الدين من ان نشبه هنا ما جاء في
المصادر عن سيرته الخاصة ليتم بذلك بحثنا .

١ - خلقه (اوصافه الجسدية)

اما فيما يتعلق بصفاته الشكلية الخارجية فيشهد ابن الاثير انه
"كان حسن الصورة ، اسمر اللون ، مليح العينين ، قد خطه الشيب ، طويلا وليس
بالطويل البائن ، ثم القامة" ^١ . ولا حاجة الى التريد بما لرواية ابن الاثير من
القيمة والافضية لانه يمكن اعتبار روايته اصلا موثوقا باعتبار ان اغلب اخباره استقاها
من ابيه ، وابن الاثير كان صديقا لعماد الدين ، مرافقا له في كثير من اسفاره
ورحلاته ، ملازما له في اكثر الاوقات . ولقد اجمعت جميع الابحاث على هذه
الصفات ، بل هي قد نقلتها عن ابن الاثير بالحرف . حتى انك اذا تصفحت جميع
المصادر وجدتها تردد امثال هذه الكلمات "كان حسن الصورة ، اسمر اللون ،
مليح العينين ، قد خطه الشيب" ^٢ .

١ . ملوك الموصل ١٣٦ ، والكامل لابن الاثير ١١ : ٤٥

٢ . ابو الفداء ٣ : ١٨ ، ابن الوردي ٢ : ٤٦ ، الحنبلي ٤ : ١٢٨ ، الحريري ٥٩

وهكذا اذا ذكرنا عماد الدين زنكي تصورنا رجلا اسمر اللون
قد طبعت السنون على وجهه طابع الشيخوخة، حتى اذا جاوزها قليلا سطت يد
المنون عليه فأفقدته الحياة، واسكنته مرقده الاخير . ولا نعرف بالضبط كم سنة عاشر
زنكي بعد الستين لان المصادر لا تذكر ذلك بالتحديد واليقين، وانما هي
تقول انه مات بعد ان جاوز الستين من عمره^١.

ب - اولاده

خلف زنكي من الاولاد خمسة ما بين ذكور واثاث، منهم اربعة ذكور
وبنت واحدة، لا تأتي المصادر على ذكر اسمها . اما البنون الاربعة فهم (سيف
الدين غازي) وهو الذي ولي حكم الموصل بعد ابيه القليل الشهيد، و(نور الدين
محمود) الذي تلقبه المصادر بالملك العادل والذي تولى امر حلب، و(قطب الدين
مودود ابو الملوك) و(نصرة الدين امير اميران)^٢.

ج - سياسته

لا يمكننا ان نحكم حكما جازما قاطعا على سياسة عماد الدين زنكي
ونزعته، اذ ان السياسة من خصائصها ان تتلون وتتحول بتحول الظروف . ولا يمكن
لسياسي ان يستقر على حال واحدة او يتميز بنزعة معينة، اذ ان ذلك يتنافى
مع مفهوم السياسة اليوم .

على اننا نعترف مبدئيا بأن زنكي كان رجل سياسة وحنكة ودهاء .
كان لا يتأخر عن استعمال الحيلة اذا وجد لها داعيا، وكان لا يمتنع عن استخدام
الخدعة والمكر حين كانت تضطره الظروف . وقد رأينا صدى هذه السياسة، وهذه
الحنكة عندما تكلمنا عن علاقة زنكي بالخليفة انه كان يخدع الخليفة ومكربه . واخبار
ذلك كثيرة قد اتينا على ذكرها في وقتها، لذا فلا حاجة الى ترديدنا الان .
وقد لاحظ المؤرخ دوكلاس هذه الناحية من سياسة عماد الدين زنكي فشهد له بالمهارة
وبالمكر والخداع، فقال "لقد كان عماد الدين زنكي ماهرا، وخداعا، وقاسيا"^٣.

١ ابن الاثير ١١: ٤٥، الترماني ٢٧٩، ابوالفداء ٣: ١٨، الحنبلي ٤: ١٢٨،

ابن الوردي ٢: ٤٦، ستيفنسن ١٥٢، الحريري ٥٩

٢ ملوك الموصل ١٣٦ ٠٣ دوكلاس ١١٨

والمؤرخون اجمع يقرون له بذلك ، فيجمعون على انه كان داهية ، عظيم السياسة^١ .
ويظهر انه كانت لعماد الدين هيبة كبيرة في نفوس اتباعه ، وكان قوى
الشكيمة شديد المراس ، شجاع القلب ، ذا سلطان كبير على رعيته ، يتمتع بحبهم
واجلالهم واحترامهم الممزوج بالخشوع والرهبة^٢ . يقول فيه كرد علي " وكانت صفاته
صفات حربية راقية ، اشتهر بشجاعته ونجدته ، اشتهاره ببطشه وشدته^٣ . وفي الحق
ان عماد الدين كان مثالا في الشجاعة " به كان يضرب المثل^٤ . ولا اعتقد ان
احدا يشك بمواهب بطلنا من هذا القبيل ، ومن عرف حاله واحاة الاعداء به ،
والطامعين ببلاده والمنازعين له السلطان من كل ارب و صوب ، ثم علم الى جانب
ذلك صبر زنكي ورياضة جأشه والقضاء على جميع اعدائه والاستيلاء على اكثر بلادهم ،
حكم لزنكي بالبطولة والشهامة^٥ . ويذكر ابن الاثير عن والده في هذا المعنى ما
نصه " كان الشهيد قدس الله روحه قد احدث الاعداء بولايته ، والمنازعون له ، فمنهم
امير المؤمنين المسترشد بالله الذي سار الى الموصل وحصرها ، ومنهم السلطان
مسعود في اعمال الجبال واذرييجان ، قد جاور اعمال الشهيد بتلك النواحي ، وهو
اقوى الخلق ، واكثرهم عساكر ، واكثرهم كراهة للشهيد ، ثم الى جانبه اعمال ارمينية ،
وهي بيت سكران ، ولهم العساكر الكثيرة ، والبلاد الواسعة ، وهم اعداؤه ، وقد جاورهم
في حيزان والمعدن ، ثم الى جانب بيت سكران ركن الدولة داود بن سقران ابن
ارتق صاحب حصن كيفا ، وديار بكر وابن عمه حسام الدين تمرتاشر ابن ايلغازي بن
ارتق صاحب ماردین ، وقد جاوروا كثيرا من ولايته منها جزيرة ابن عمر ونصيبين ، ومع
هذا فاخذ من بلادهما كثيرا ، ثم الى جانبهما الفرنج من قريب ماردین الى باب
دمشق قد جاوروا بلاده من رأس عين ، وحران ، وحلب ، وحماة ، وحمص ، وعلبك ، وهم
اشد ما كانوا قوة واكثر جمعا ، ومع هذا فهو يملك بلادهم ، ويهربهم مرة بعد اخرى
ثم صاحب دمشق قد جاوره بها ، ومع هذا فهو يأخذ ايضا من بلاده ، فكان يستقر
بل يغزو كلا منهم في عقر داره ما عدا السلطان مسعود فانه كان لا يباشر قصده

٠١ ابن الاثير ١١: ٤٥ ، القرطبي ٢٧٩ ، الحريري ٥٩

٠٢ ابن الاثير ١١: ٤٥ ، القرطبي ٢٧٩ ، ابوالفداء ٣: ١٨ ، الحنبلي ٤: ١٢٨ ،

الحريري ٥٩ ٠٣ كرد علي ٢: ١٦ ٠٤ ملوك الموصل ١٥١

٠٥ ملوك الموصل ١٥٠ - ١٥١

بل كان يحمل اصحاب الاطراف على الخروج عليه ، فاذا فعلوا عاد السلطان مسعود اليه وطلب منه ان يجمعهم على طاعته فيصير كالحاكم على الجميع ، فانظر الى هذه الشجاعة وهذا الرأي والتدبير ، ولو لم يكن في زمانه غير ركن الدولة داود صاحب الحصن لكفى به فانه كان بعيد الصوت في التركمان ، يجمع منهم كل من حمل السلاح وكان مع هذا شجاعا مقداما ، يفارق المعركة مهزوما ثم يعاود الحرب بعد ايام ، واما الفرنج فقد كانوا لما ملك البلاد قد قهروا المسلمين ، وملكوا بلادهم ، واكثروا فيهم القتل ، ولهم فيهم الصوت العظيم ، والهبة الكثيرة .^١

وكان يجمع الى هذه الشدة والشجاعة دماثة في الخلق ، ورحابة في الصدر ، لا حد لهما ، ولعل لين عريكته ودماثة خلقه هذه هي التي حبيته الى السلطان تاج الملوك وقربته منه منذ نعومة اظفاره ، حتى ان المصادر تذكر ان السلطان تاج الملوك عندما تعرف الى عماد الدين قدمه على ابناء جنسه من خواصه وبطانته ، فجعله مقدم عسكره ، واستنابه في تدبير امر بعض بلادهم ، وسلم اليه ولده شمس الملوك ، واعتمد عليه في تربيته وكفالاته .^٢

ويقول ستيفنسن في معرض كلامه عن الشهيد عماد الدين زنكي " قد دلت اعماله بانه شخص يعلم كيف يستخدم القوة التي بيده ، فقد كان رجلا واضح الغاية ، سريع التنفيذ لخططه ، قاسيا مع الاعداء ، رحيما للاصحاب والرعايا . وكانت الناس تخافه ، وقد تبني مصالحهم وكان ينشر الامن والسلام في البلاد .^٣ ولعل ستيفنسن محق فيما يذهب اليه من تعريف زنكي ان المصادر العربية كلها ، وابن الاثير في زمرتها ، تصف هذه الناحية من اعمال زنكي فتكيل له المدح والثناء لما كان يبذله من الجهد والعناية في سبيل تسيير الامور ، وتسهيل المصالح ، واقرار الامن والسلام في البلاد التي كان يفتحها . اصف الى ذلك ان زنكي كان شديد العناية بالضعفاء ، يضرب على ايدي القوي ويأخذ بناصير الضعيف ، يراعي اصحاب الحق في حقوقهم ولا يخاف في ذلك لومة لائم . يقول صاحب ملوك الموصل " كانت سيرته من احسن السير ، واكثرها جزما وضيظا للامور . كانت رعيته في امن شامل ، يعجز القوي على التعدي على الضعيف . لم يتغير على احد من اصحابه مذ ملك الى ان قتل الا بذنب يوجب التغيير .^٤

ويورد ابن الاثير كثيرا من القصر التي تدل على نزاهة الرجل
وعدله وانصافه ، لعل من ابلغ هذه القصر تلك التي تقرن باسم الامير عز الدين
ابي بكر الديبسي ، وموداها " أنه لما قدم الشهيد جزيرة ابن عمر ، وكان الزمان شتاء
فنزل بالقلعة ، ونزل العسكر في الخيام ، وكان في جملة امرائه ، الامير عز الدين ابو
بكر الديبسي ، وهو من اكابر امرائه ومن ذوى الرأى عنده ، فدخل الديبسي البلد
ونزل بدار انسان يهودى واخرجه منها . واستغاث اليهودى الى الشهيد وهو
راكب فسأل عن حاله ، فأخبره به وكان الشهيد واقفا والديبسي الى جانبه وليس
فوقه احد ، فلما سمع اتاك الخبر نظر الى الديبسي نظر معضب ولم يكلمه كلمة
واحدة ، فتأخر القهقرى ودخل البلد واخرج خيامه وامر نصبها ، ولم تكن الارض تحتل
وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين ، قال فلقد رأيت الفراشين وهم ينقلون الطين
لينصبوا خيمته ، فلما رؤا كثرت جعلوا على الارض تبننا يقيمونها ونصبوا الخيام ، وخرج
اليها من ساعته ، وناهيك بهذا سياسة وانصافا .^١

د - زنكي والدين

ويظهر ان عماد الدين كان ينزع نزعة اسلامية ، ويرى ان التمسك بالدين
امر لا محيص منه ، فأقبل على تعليمه ، واستمسك بعراها ، وعمل بحسبها . ومن يلق
نظرة على المصادر العربية يستطيع ان يستشف من خلال سطورها هذا الاتجاه
في الحكم على زنكي من حيث حياته الروحية . وربما كان ذلك سياسة منه لا اخلاصا
وتقوى .

وما يؤثر عنه في هذا الباب انه كان شديد الغيرة على نساء الاجناد
كثير الحوص على حفظهن ، لان كثرة غياب بعولهن عنهن يسبب فسادهن ، لذلك
النم نفسه محافظتهن محافظة حقة .^٢

هـ - زنكي وعمارة البلاد

لعل من اهم ما يقرن باسم عماد الدين زنكي من الاعمال الخاصة

٠١ ملوك الموصل ١٣٦ - ١٥١

٠٢ ابن الاثير ١١ : ٤٥ ، الروضتين ٤٤ ، كرد علي ٢ : ١٧

عنايته الملحة، واهتمامه الشديد في امر تعمير البلاد بعد خرابها، ورفعها بعد دمارها . يقول ابن الاثير في كتابه ملوك الموصل " لا خلاف في ان عمارة البلاد من ثمرات العدل وكف الايدي المتظاولة الى اهلها، ومن علم حال هذه البلاد قبل ملكه، عرف مقدار ما عمر منها، حكى لي والدي قال رأيت الموصل التي هي ام البلاد في اول ايام الشهيد واكثرها خراب، وكان الخراب من محلة الطباية الى القلعة والى دور السلطنة، وكانت العرصه ترى من قريب مسجد التركماني وهو قريب من الطبايين، وكان الجامع الكبير بلا عمارة، وكانت جميع المحال غير معمورة، فلما طالت الايام الشهيدية، وحمى البلاد، ومنع المفسدين، وكف ايدى الاقوياء، سارت سيرته في البلاد، فلم تنزل العمارة تكثر بالموصل وغيرها حتى ذهب كثير من المقابر وبنيت دوراً^١ ويقول منقريوس بهذا المعنى " وكانت الموصل قبل ان يملكها خراباً، فصارت في ايامه وما بعدها اكثر البلاد فواكه ورياحين^٢ .

و- عماد الدين والادارة

لقد كان عماد الدين ذا خبرة ادارية كبيرة، كما كان ذا حنكة سياسية عظيمة . كان يعرف كيف يدير البلاد، كما كان يعرف كيف يسوسها . بلغت فيه الدقة في الامور الادارية الى حد انه كان يعلم كل ما يجري حوله من الاعمال وليس من شاردة او كبيرة الا وكان زكي يعلمها . فقد كانت عيونه منبثة في كل الاطراف، تأتبه في كل وقت حاملة اليه من اخبار الامصار الشيء الكثير . ولقد ذكر ابن الاثير عن والده في هذا الصدد قصة لا بأس من ذكرها . هي قصة زيارته معسكر زكي حين كان في حصار قلعة جعبر، يقول :

" انني وصلت الى معسكره بقلعة جعبر قبل قتله بايام وقصدت خيام جمال الدين الوزير، فحين وصلت ادخلني اليه، فبينما انا عنده وهو يسألني عن طريق اذا وقد جاءه مملوك تركي من عند الشهيد وقال له بالعجمية كلاماً لا اعلمه، فقال لي جمال الدين متى وصلت؟، فقلت الساعة، فقال هذا اعجب، تجيء الساعة، ويسمع أتابك بوصولك، ولا شك قد علم بك قبل وصولك الي، وقد ارسل

١ . ملوك الموصل ١٣٦ - ١٥١

٢ . منقريوس ١٨٥